

الفصل الرابع

أبرز مجالات الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر

المبحث الأول: شخصيات المرحلة الأولى

١. بطرس الناسك

٢. ناصيف اليازجي

٣. طاهر الجزائري

المبحث الثاني: شخصيات المرحلة الثانية

١. رفيق العظم

٢. ساطع الحصري

٣. ميشيل عفلق

الفصل الرابع

أبرز مجالات الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر

من خلال دراسة تأسيس الجمعيات القومية، يجد الباحث بعض الشخصيات التي كان لها أثر واضح في التكوين الفكري، والتنظير المنهجي، لتلك الجمعيات.

وليكتمل التعريف بالجمعيات القومية لزم التعريف بأبرز الرجال الذين كان لهم دور فعال في تأسيسها، وذلك بإيراد تراجم لهم وسيلاحظ في تلك التراجم أنها كانت من مصادر أعضاء الجمعيات القومية أنفسهم أو المعاصرين لهم. وقد اخترت الشخصيات^(١) التالية:

١- بطرس البستاني.

٢- ناصيف اليازجي.

٣- طاهر الجزائري.

٤- رفيق العظم.

(١) رغبة في بيان مدى تأثير المترجم لهم على أعضاء الجمعيات؛ فقد نقلت نصوصهم كما هي مع ما تحمله من إطراء وتبجيل لصاحب الترجمة.

٥- ساطع الحصري .

٦- ميشيل عفلق.

وستكون دراسة هذه الشخصيات من خلال:

١- تعريف موجز بالشخصية الذاتية .

٢- اتجاهها العقدي.

٣- أهدافها وآراؤها القومية .

٤- آثارها العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية .

لقد شهد القرن التاسع عشر رواداً من الأدباء والمفكرين الأوائل، كانوا خليطاً من النصارى والمسلمين في سورية الطبيعية، حملوا لواء الفكر القومي العربي.

وبالنظر إلى تاريخ تطور فكرة تأسيس الجمعيات القومية العربية، يلاحظ أنه ينقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: بداية الالتقاء الثقافي بين الدول الاستعمارية النصرانية والدولة العثمانية، وذلك من خلال الحملات التنصيرية في الدولة العثمانية، وأبرز شخصيات هذه المرحلة ستتناولهم الدراسة في المبحث الأول.

المرحلة الثانية: تبدأ من إسقاط السلطان عبدالحميد وتولي جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة، وفي هذه المرحلة التاريخية أنشئت الجمعيات القومية العربية، وأبرز شخصيات هذه المرحلة ستتناولهم الدراسة في المبحث الثاني.

المبحث الأول

شخصيات المرحلة الأولى

أولاً: بطرس الناسك:

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

هو: بطرس بن بولس بن عبدالله البستاني، ولد سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٩م) في قرية الدبية من قرى لبنان، والديه عدد سكانها خمسمائة نفس من طائفة الموارنة وقليل من البروتستانت فهو من نصارى العرب.

كان بطرس البستاني، كما يصفه أعضاء الجمعيات القومية، قد نبغ في سوريا والعلم لا يزال طفلاً في مهده فأخذ في التعليم والتهديب علماً وعملاً^(١). وقالوا عنه: لو شاء الكاتب أن يصف ما امتاز به البستاني الكبير وصفاً يصفح به الحقيقة، ويلبسه من خصائصه الأدبية ثوباً نسجته يد الإصابة... لا يسع الكاتب إلا أن يلحقه بأولئك الذين يعتوهم بقيادة الأفكار ومحركي النهضة العلمية.. على أنه مع هذا كان من جبابرة الناهضين^(٢).

(١) مجلة الهلال-المجلد ٤-الجزء ١٠-السنة الرابعة-٣٠ رجب ١٣١٣هـ-ص: ٣٦٢-٣٦٣

(٢) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندي-٢٠٦-المطبعة الجمالية-مصر-الطبعة الأولى-١٣٣٢هـ (١٩١٤م).

وقد ذكر القوميون أن للبستاني مراتب الأولوية في بعض المجالات العلمية، فهو: أول من أسس مدرسة وطنية عالية، وأول من ألف قاموساً عربياً عصبياً مطولاً، وأول من أنشأ مجلة راقية، وأول من ابتداء مشروع دائرة معارف باللغة العربية..^(١) وأول من أنشأ مجلة علمية وجريدة سياسية ومدرسة وطنية. وأول من أقدم على المشروعات الأدبية بعزم ثابت فألف الكتب وسهل طبعها ونشرها^(٢).

فهو ركن النهضة الأدبية الثابت، ومحور الحركة الوطنية في عصره، وهو من صرف حياته كلها في سبيل العلم والوطن، وترك الآثار العديدة من أدبية واجتماعية، وأحدث التأثير البالغ في أبناء قومه خاصة، وفي الأدب العربي عامة^(٣).

وعن تلقيه للعلم فقد أخذ بطرس البستاني — كما يقول مترجمو حياته — مبادئ القراءة والكتابة من القسيسين الذين كانوا كما يقول المترجمون: يعلمون صبيان رعاياهم ببساطة معارفهم وقوة مثلهم، مبادئ العربية والسريانية، مع خدمة القُدَّاس، وأصول الفضائل المسيحية، في تلك المدرسة.

ومن أولئك القسيسين حوري ميخائيل البستاني، الذي كان يهذب صغار الضيعة، فلاحظ ذكاءً نادراً من بطرس البستاني، فأخبر به رئيس أساقفة صور

(١) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمة.

(٢) مجلة الهلال-المجلد ٤-الجزء العاشر من السنة الرابعة-٣٠ رجب ١٣١٣هـ-ص: ٣٦٥.

(٣) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمة.

وصيدا، فاهتم الرئيس بالأمر واستقدمه وبعد أن تحقق من ذكائه أرسله إلى عين ورقة^(١)، فالتحق بكلية الدير في قرية عين ورقة وهو ابن عشر سنوات، وتعلم فيها العربية واللاتينية والإيطالية فضلاً عن العلوم اللاهوتية^(٢).

ومدرسة دار عين ورقة^(٣)، التي تلقى فيها بطرس البستاني العلوم كانت ديراً لأحد نصارى العرب، ثم حولت إلى مدرسة عامة للطائفة النصرانية. ويقول عنها نصارى العرب: كان لها تأثير كبير على أبناء النصارى، حيث نبغ من هذه المدرسة كثيرٌ من الرؤساء والعلماء، حتى كان في القرن التاسع عشر أكثر بطاركة الطائفة ومطارنتها وكهنتها المشتهرين من تلامذة هذه المدرسة .. ومن هذه المدرسة خاصة بُثت علوم اللغتين العربية والسريانية وغيرها من العلوم والفنون بين نصارى سورية^(٤).

لقد قضى بطرس البستاني في هذه المدرسة عشر سنوات، أتقن فيها اللغة والمنطق والتاريخ والحساب... ومبادئ الفلسفة واللاهوت والقانون، وخرج من المدرسة وهو في العشرين من عمره^(٥). وعين مدرساً فيها إلى سنة ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ)^(٦).

(١) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمة-المطبعة الكاثوليكية-بيروت-١٩٢٩.
 (٢) بقظة العرب-جورج انطونيوس-١٢٢. وانظر: الإعلام الزركلي-٥٨/٢.
 (٣) انظر: بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن التاسع عشر-بطرس فهد-١٩٩٠.
 (٤) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل-يوسف الدبس-٣٣٩-دار لحد خاطر-الطبعة الثالثة-١٩٨٢.

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية-جرجي زيدان-٢٦٩-دار الهلال.

(٦) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل-يوسف الدبس-٣٨٢.

التقى بطرس البستاني — خلال غزو الحملات التنصيرية للبلاد السورية — بدعاة المذهب الإنجليزي من الأمريكان، الذين أقاموا بيروت للتعليم ونشر مذهبهم، فتعرف ببعضهم وجعل يختلف إليهم يعلمهم اللغة العربية ويُعرب لهم بعض الكتب ككتاب: (الباب المفتوح في أعمال الروح) ومؤلفه سميث، وقد طبع الكتاب في بيروت سنة ١٨٤٣^(١) ولما تمكنت علائق المودة بينه وبينهم ووافقهم على مذهبهم^(٢).

أنشأ الدكتور فان ديك — الذي قال عنه القوميون العرب قد جاء إلى بلاد الشام مبشراً وطيباً^(٣) — في سنة ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) مدرسة بعبية بقرار صدر من هيئة المبشرين الأمريكان^(٤)، وساعده البستاني في إنشائها، وتأليف الكتب الدراسية، وعيّن البستاني أستاذاً في مدرسة عبية سنة ١٨٦٠م (١٢٧٦هـ)^(٥).

أقام بطرس البستاني سنتين في مرحلة التدريس والتعليم، ثم عين من قبل الحملة التنصيرية ترجماناً في قنصلية أمريكا، وعكف على التأليف والترجمة.. وأعان الدكتور سميث الأميركي على ترجمة الأسفار المقدسة إلى العربية^(٦).

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق-الجزء ٣-المجلد ٤٥-ربيع الآخر سنة ١٣٩٠هـ-ص: ٥٩٥.

(٢) مجلة الهلال-المجلد ٤-الجزء العاشر من السنة الرابعة-٣٠ رجب ١٣١٣هـ-ص: ٣٦٢-٣٦٣

(٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٢.

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق-الجزء ٣-المجلد ٤٥-ربيع الآخر سنة ١٣٩٠هـ-ص: ٦١١.

(٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٢٢. وانظر: الإعلام الزركلي-٥٨/٢.

(٦) الجامع المفصل في تاريخ المواردة الموصل-يوسف الدبس-٣٥١.

إن سبب اهتمام المنصرين بقرية عبية، وإقامة مدرسة تنصيرية فيها، كونها بعيدة عن مراقبة الدولة العثمانية، ويوجد بها طوائف مختلفة... وقد استطاعت المدرسة أن تساعد على تحقيق غاية المنصرين حتى تأسست الجامعة الأمريكية في بيروت^(١)، وفي هذا الجو التنصيري نشأ بطرس البستاني.

ولم تقتصر علاقة بطرس البستاني مع المنصرين الأمريكان بأعمال الترجمة والتدريس، أو الالتقاء بالمعتقد النصراني^(٢) فحسب، وإنما تأصلت أسباب الصداقة بين البستاني وبين الدكتور فان ديك، وظاهر كل منهما صاحبه على مشاريعه العلمية والأدبية، من تأسيس المدارس وإنشاء الكتب والصحائف وسواها، ولم يشغله ذلك عن وضع الكتب لتلاميذ المدارس وتعريب ما يرى فيه النفع للمتأدبين. ثم صبت نفسه إلى التوسع في تأليف الكتب ونشر الآداب والمعارف فانكب على التصنيف ونشر الصحف يتلو بعضها بعضاً^(٣).

وإضافة إلى جهده العلمي فقد كان البستاني، مقصوداً بحاجات الناس مستشاراً في المهمات الدينية والأدبية والسياسية، مسؤولاً الإسعاف ذوي المصالح لا يردُّ طالباً إلا مسروراً^(٤).

وتكاد تجمع مصادر ترجمة بطرس البستاني أن وفاته كانت في عام ١٨٨٣ م (١٣٠٠هـ) وعموت الفجاءة بسبب هبوط في القلب، بينما كان يعمل في دائرة المعارف وعثروا عليه ملقى على أرض غرفته^(٥).

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية-عمر فورخ و مصطفى الخالدي- ٩٤.

(٢) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٢.

(٣) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوي-٢٠٥-٢٢٢.

(٤) دائرة المعارف-بطرس البستاني-٥٩٢.

(٥) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٦.

وقال فان ديك في رثائه لبطرس: معلمي ورفيقي، فكم من الليالي أحييناها معاً في الدروس والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشرة الصادرة عن اتحاد المقاصد والأغراض^(١).

وقد خصصت بعض مجلات الجمعيات القومية العربية ترجمةً لحياته ومآثره^(٢) فمُلت أعمدتها رثاءً، وسُوِّدَت صفحاتها حزناً^(٣). ومما ورد في افتتاحية مجلة المقتطف: إن مصابه أنزل من الوطنيين منزلة مُصَابِ عامٍّ وخطب تامٍّ^(٤).

كما أقامت بعض صحف ومجلات الجمعيات القومية رثاءً لوفاته، فقد طرحت (مجلة الهلال) سؤالاً وجهته إلى القراء: اذكر أسماء الأشخاص السبعة من الكتاب والأدباء والشعراء الذين هم في نظر القارئ أصحاب الفضل الأكبر على النهضة الحديثة في الآداب والعلوم بأوسع معانيها — أي من ابتداء القرن الماضي إلى هذا اليوم — أحياء كانوا أم أمواتاً ومهما تكن مواطنهم أو مذاهبهم؟

وكانت نتيجة هذا السؤال أن استحق البستاني ترتيبه الأول من الإجابات الواردة من مصر والسودان وسوريا، وترتيبه الثاني من مجموع الأصوات^(٥).

(١) دائرة المعارف - بطرس البستاني - ٥٩٣. وأوردت مبحثاً خصته بالحديث عنه، وذكر تفاصيل وفاته.

(٢) انظر: ١ - مجلة المقتطف - الجزء الأول - من السنة الثامنة - آب سنة ١٨٨٣. ص: ٥

٢ - مجلة الهلال - المجلد ٤ - الجزء العاشر من السنة الرابعة - ٣٠ رجب ١٣١٣ هـ - ص: ٣٦٢ - ٣٦٣

(٣) الروائع - المعلم بطرس البستاني - فؤاد افرام البستاني - المقدمة.

(٤) مجلة المقتطف - الجزء الأول - من السنة الثامنة - آب سنة ١٨٨٣. ص: ٧

(٥) انظر: مجلة الهلال - الجزء السادس - السنة ٢٩ - ٢١ جمادى الآخرة ١٣٣٩ هـ - الموافق ١ مارس ١٩٢١.

وأقام أعضاء الجمعيات القومية العربية حفلة تكريمية بمناسبة إحدى ذكرياته^(١) لسيّ الدعوة الجُمّ الغفير من حملة الأقلام في العالم العربي، فأقيمت الحفلة مساء الجمعة ٢٦ كانون الأول سنة ١٩١٩ م، في نادي المدرسة الكلية الأمريكية، واشترك فيها ٦٥ خطيباً بين عالم وكاتب وشاعر ومهندس وصحافي ومحامي وطبيب.. وهكذا فقد اجتمع علماء وأدباء القرن العشرين يكرمون ويعظمون نابغة القرن التاسع عشر..^(٢) كما قال أعضاء الجمعيات القومية العربية.

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية بطرس البستاني من أوائل الشخصيات العربية، التي جاءت بفكرة تأسيس جمعيات لأهداف محددة في المجتمعات العربية وفي عصر كانت الأمية من أبرز معالمها. وقد تعددت أشغال البستاني في الجمعيات المختلفة من دينية وخيرية وعلمية أدبية، وفي تعريب الرسائل الدينية والتبشيرية، وإلقاء الخطب وتأليف الكتب.

وإذا ألقينا نظرة على حياته الاجتماعية وأعماله المختلفة، رأينا رئيساً أو عضواً عاملاً في أكثر الجمعيات والمؤسسات التي عرفت في بلادنا على عهده...

(١) تراجع مشاهير القرن التاسع عشر - جرجي زيدان - ٣١/٢

(٢) الروائع - المعلم بطرس البستاني - فؤاد افرام البستاني - المقدمة. وانظر: تاريخ الآداب العربية - الأب لويس شيخو - ٢٥٢.

فكان عضواً في عمدة الجمعية السورية الأولى ... وكان عضواً فخرياً في الجمع العربي الشرقي، آخذاً بمراسلة الكثيرين من علماء الشرق والغرب في الشؤون العلمية^(١).

وقد بين البستاني في دائرة المعارف، تاريخ تأسيس الجمعيات، فقال: (قد وجدت الجمعيات في القدم وفي القرون المتوسطة وصار لها أهمية بنشرها المعارف المدرسية).

وعن الأهداف الخاصة لتأسيس الجمعيات في البلاد الأوربية والغربية، قال: (يوجد في الممالك المتحدة جمعيات لجميع فروع العلوم والآداب والمعارف الصناعية تقريباً.. فمن تلك الجمعيات: الجمعية الجيولوجية، والجمعية الجغرافية الملكية، وهما أكبر المحركات لاكتشافات هذا العصر المهمة، وكذلك الجمعيات المشتغلة في الآثار القديمة.. وهي ذات نشاط عظيم وقد بذلت الهمة في السفر والتفتيش).

(وتوجد جمعيات علمية أخرى في بلدان أخرى من الشرق وفي كندا وأستراليا وفي كل قسم تقريباً من الإمبراطورية البريطانية وجميع الجمعيات المهمة من عادتها نشر أعمالها.. وفي هذا القرن يوجد جمعيات مختلفة للعلوم السياسية والمعشورية (الاجتماعية) وتلك البلاد مملوءة بجمعيات لكل فرع من فروع المعارف).

(١) الروائع-المعلم بطرس البستاني-فؤاد افرام البستاني-المقدمة.

(وأما آسيا وإفريقية فقد أنشئ فيهما في القرن الحالي جمعيات لمقاصد مختلفة ولكن ما بقي منها حياً لا يقاس بشيء من الجمعيات المار ذكرها)^(١).
فيقرر بطرس البستاني مبدأ تأسيس الجمعيات، وكونها محددة لأهداف معينة، وذكر منها أهدافاً علمية، وسياسية، واجتماعية... الخ من الأهداف. ومن الآثار العملية والعلمية في تأسيس الجمعيات القومية العربية، ما يلي:
أولاً: اطلاع بطرس البستاني على تطور تاريخ تأسيس الجمعيات، واعتبار أن الجمعيات وسيلة مهمة في نشر المعارف والعلوم، فقد قدم اقتراحاً إلى البعثة الأمريكية التنصيرية، بتأليف جمعية تهدف إلى بذل الجهد لمسيرة انتشار التعليم في المدارس وظهور العناية الحديثة بالعلوم.

وحقق المشروع المقترح فأنشئت سنة ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) في بيروت باسم (جمعية الآداب والعلوم) وكان من أعضائها: اليازجي والبستاني. وكذلك إبلي سميث وكورنيليوس فان دياك، وعدة أعضاء من الأمريكان، وانتسب إليها رجل إنجليزي كان يقيم في بلاد الشام هو الكولونيل تشرشل. ولم يشترك فيها عضو مسلم فأكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت^(٢).

وقد يُسجّل في تاريخ البستاني بأنه من أوائل من أسس الجمعيات في البلاد العربية، فيذكر أحد مؤرخي نصارى العرب بأن سورية لم تخل من جمعيات

(١) دائرة المعارف-بطرس البستاني-٥٢٤/٦-٥٢٥-جمعية

(٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٦-١١٧(بتصرف). وانظر: الفصل الأول من الرسالة.

علمية، وقال عن هذه الجمعيات: بأنها نفعت الآداب بأفكارها الراقية ومساعدتها بترقية المعارف ومنشوراتها الحسنة.

وكانت أولها جمعية أدبية سعى بعقدتها بعض مشاهير لبنان في بيروت سنة ١٨٤٧ فلم تطل مدتها، ثم الجمعية الشرقية التي أنشئت سنة ١٨٥٠ (١٢٦٦ هـ) في دير الآباء اليسوعيين في بيروت^(١). ثم خلفتها سنة ١٨٥٧ (١٢٧٣ هـ) الجمعية السورية وضمت عدداً من الذوات^(٢).

وكان كل أعضاء الجمعية السورية من العرب فلم تضم أحداً من الأجانب على الإطلاق، كما أنها كانت تضم أعضاء من العرب المسلمين إلى جانب المسيحيين، مما يدل على تطور الوعي القومي، والارتفاع فوق الخلافات الطائفية^(٣) كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، ثم اتسعت دائرة أعمالها ونالت من الدولة العلية الرخصة بنشر أبحاثها فنشرت أولاً من حين إلى آخر دون وقت محدد^(٤).

ثانياً: لقد أسس بطرس البستاني (المدرسة الوطنية)، التي تهدف كما يقول أعضاء الجمعيات القومية إلى أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم تعليماً أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية.. وجذبت إليها التلاميذ من جميع

(١) انظر: مجلة المشرق ١٢/١٩٠٩/٣٢-٣٨. والإعلام-الزركلي-٢٤٦/٥.

(٢) تاريخ الآداب العربية-الأب لويس شيخو-٧٥-منشورات دار المشرق-بيروت الطبعة الثالثة-١٩٩١

(٣) حركة اليقظة العربية-محمود صالح منسي-٦٦.

(٤) تاريخ الآداب العربية-الأب لويس شيخو-٧٥.

أنحاء بلاد الشام، كان بينهم من قدّم بعد ذلك أعمالاً جليلة لبلاده^(١)، وقد أنعمت عليه الحضرة السلطانية بوسام الشرف مكافأة لخدمته^(٢).

إن تأسيس المدرسة الوطنية على قاعدة الحرية الدينية، ومبدأ الجامعة الوطنية، مماثل لأهداف الجمعيات القومية العربية، والتي تنص مبادئ الجمعيات على الرابطة القومية، وأنها أولى من الرابطة الدينية، كما سبق توضيح ذلك.

ومن أهم ما ينبغي التنبيه إليه أن هدف (المدرسة الوطنية) كان غريباً على المجتمعات العربية في ذلك الوقت، فإن الأتراك وغالبية العرب الساحقة كانوا يشعرون أنهم أعضاء في أمة إسلامية عظيمة يربط بينهم دين واحد، وولاء لحاكم مسلم هو السلطان العثماني^(٣).

يصدق على بطرس البستاني ما ذكره القوميون، بأنه كان متمرداً، ولكن لا على أشخاص بالذات، بل على فكرة دان بها أشخاص من الغرب، فتابعهم عليها آخرون من الشرق، هي فكرة الطائفية والتعصب لها وللدين أيضاً^(٤).

لقد كانت أهداف المدرسة الوطنية، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية، أن تؤلف القلوب بين متغايري الأديان متبايني المذاهب، وتذيع المبادئ الوطنية على صدق في جانب الدولة، وإخلاص في جانب الوطن، فانسل إليها الطلبة

(١) بقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٥.

(٢) الجامع المفصل في تاريخ المواردة الموصل-يوسف الدبس-٣٥١.

(٣) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٢٦.

(٤) دور العروبة في تراثنا اللبناني-زكي النقاش-١٠٠-دار لبنان-بيروت-لبنان-الطبعة الثالثة-

من كل ناد وصوب؛ من مصر والأستانة واليونانية والعراق من عرب وأعاجم، وقد بلغ عدد طلبتها مبلغاً كبيراً وأرضعتهم من لبان الآداب شيئاً كثيراً بما جعل لمنشئها وصاحبها يداً بيضاء في تقدم الأدبيات وإذاعة المبادئ الوطنية^(١)، وقد جارت في تعاليمها بقية مدارس المدينة^(٢).

وولي شؤون التعليم أساتذة من العرب والإفرنج لتعليم اللغات بجملتها والعلوم والفنون بضرورها، ومما جرت عليه عادة البستاني في المدرسة أنه كان يخطب في الطلبة مرتين في الأسبوع، يوم مذكرة علامات حال الطالب، وخطبة يوم الأحد فكان يضمنها الحض على التقوى والصلاح وتقويم المسالك وحب الوطن وغير ذلك^(٣).

كان تأسيس المدرسة الوطنية قد جاء بعد أن وقعت حروب عدة في البلاد العربية، قال عنها القوميون: ذات صبغة طائفية. ومن أبرزها الحرب الأهلية التي وقعت في لبنان بين النصارى والدروز، سنة ١٨٦٠^(٤)، وقد سعى البستاني كما يقول نصارى العرب إلى تخفيف حدة مشاعر الحقد الديني.. ووقف معظم جهده على الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة...^(٥).

(١) دائرة المعارف - بطرس البستاني - ٥٩٠ - دار المعرفة - بيروت - لبنان - (دائرة)

(٢) تاريخ الآداب العربية - الأب لويس شيخو - ٧٦.

(٣) دائرة المعارف - بطرس البستاني - ٥٩٠ - دار المعرفة - بيروت - لبنان - (دائرة)

(٤) انظر عن هذه الحوادث، كتاب: مذبحه الجبل (حسر اللثام عن نكبات الشام) - شاهين مكاربوس - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٣.

(٥) يقظة العرب - جورج انطونيوس - ١١٥.

فأنشأ البستاني بعد ثلاث سنوات من هذه الحروب المدرسة الوطنية، غايتها أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم، تعليماً أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية.. وتزوّد التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي^(١). فحذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام، كان بينهم من قدم بعد ذلك أعمالاً جليلة لبلاده^(٢).

وقد وصفته دائرة المعارف، بأن من خلاله الحميده وخصاله المشكورة، ترفعه عن التعصب وإبائه الانقياد إلى هوى النفس، إذ لم يكن متعصباً إلا للوطن، ولا منقاداً إلا للمبادئ الوطنية.. مجتهداً مجداً في ترقية مصلحة البلاد بالأدبيات..^(٣).

وأما عن الجانب التاريخي للمدرسة الوطنية، فيقول عنها مؤرخو النصارى: هي من جملة المدارس التي أنشأها الموارنة لأن منشئها ماروني أصلاً وهو المعلم بطرس البستاني، وقد افتتحها سنة ١٨٦٣ (١٢٧٩هـ)، وجعلها تحت إدارة ابنه سليم الذي كان يعلم بها العلوم والصف الأول الإنكليزية، وتخرج بها كثيرون من الموارنة أيضاً ولم تكن تتعرض لتلامذتها في أمر دينهم بل كانت ترسلهم لقضاء فروضهم الدينية في كنائس طوائفهم، ودامت خمس عشرة سنة، وقد أقفلت سنة ١٨٧٥ (١٢٩١هـ)^(٤).

(١) حركة اليقظة العربية-محمود صالح منسي-٦٥.

(٢) يقظة العرب-انطونيوس-١١٥. وانظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية-عمر فروخ-١٣٧.

(٣) دائرة المعارف - بطرس البستاني-٥٩٢.

(٤) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة الموصل-يوسف الدبس-٣٨٢. انظر: الإعلام-الزركلي-٨/

وقد تخرج من المدرسة الوطنية كثيرون من الطلبة بعد أن تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي. وارتقى كثيرون منهم إلى وظائف معتبرة ومراتب سامية^(١).

ويقول أحد نصارى العرب المنتسبين للجمعيات القومية العربية: كنت سنة ١٨٦٥ (١٢٨١هـ) تلميذاً بالمدرسة الوطنية التي أسسها في بيروت المعلم بطرس البستاني وهو أحد أصحاب النهضة العربية المجد المجتهد .. توفي سنة ١٨٨٣ وكنت يومئذ في بيروت وحضرت مشهده، حيث كان رئيسي ومعلمي^(٢).

إن المدرسة الوطنية تعتبر من أبرز آثار بطرس البستاني القومية، ولذا اعتبره القوميون بأنه أول من رفع راية التعليم (العلماني) والقائم على الوطنية، والحرية الدينية. وقالوا عنه: كفاه بذلك حقاً، أن يكون بين الفئة الممتازة، ممن خدمتهم العروبة، فعرفوا لها فضلها، وأعادوا لها بعض ذلك بعرفان جميلها^(٣).

ثالثاً: ومن مآثره القومية، الخطب التي كان يلقيها في الجمعيات، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية. له خطب عدة كان يلقيها في الجمعيات والأندية، التي حث الأمريكان على إنشائها، كما كان يكتب لهذه الجمعية

(١) دائرة المعارف - بطرس البستاني - ٥٩٦. وانظر: الجامع المفصل - يوسف الدبس - ٣٥١. وانظر: حركة اليقظة العربية - محمود صالح منسي - ٦٥.

(٢) مجمع المسرات - شاكر الخوري - ٨٢ - مطبعة الاجتهاد - بيروت - ١٩٠٨. وقد رثاه المؤلف بقصيدة طويلة - ٤٢١.

(٣) دور العروبة في تراثنا اللبناني - زكي النقاش - ١٠١. وانظر: بشر بين السلطان والعزير (١٨٠٤ - ١٨٤١) - أسعد رستم - ٢٣٢ - منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٦٦.

الأدبية النشرات^(١) وكان في عصره كما يقول جرجي زيدان: زعيم الحركة الأدبية في سوريا، من حيث المدارس والجمعيات والجرائد والمجلات، واللغة والعلم، والأدب^(٢).

لقد كانت خطبه وكلماته تهدف لما قرره، من تحقيق المبدأ العلماني، والحرية الدينية، والبعد عن التعصب الديني، والمطالبة بنشر المعارف والعلوم في الأمة، ولهذا فأبلغ المآثر التي ذكرها بطرس البستاني -عند حديثه عن الخليفة العباسي هارون الرشيد-، بأن له شهرة عظيمة في الرغبة والهمة والنشاط في إحياء العلوم والآداب ونشرها في مملكته المتسعة... وكان يعتبر العلم أينما وجد، والعلماء مهما كان مذهبهم، فلم يكن يزدري بمعرفة من يخالفه في أمر المذهب، فإن رئيس مدارس وأول مدير للعلوم في المدارس العالية في مملكته كان رجلاً نصرانياً نسطورياً دمشقياً اسمه يوحنا بن ماسويه^(٣).

وللدور البارز الذي قام به بطرس البستاني بحركة الترجمة مع الحملة التنصيرية، تحدث البستاني عن مناقب المأمون ودوره في ترجمة كتب اليونان، فمما قال بطرس البستاني عن المأمون: (.. كان منذ نعومة أظفاره مولعاً بالمطالعة والدرس وقد اتخذ في حياة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان، ولما تبوأ تحت السلطنة لم تلته مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم

(١) يقظة العرب - جورج انطونيوس - ١١٥.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان - دار الهلال - ٢٦٩.

(٣) انظر عن أثر تمكين النصارى في أعمال المسلمين خلال الدولة العباسية: أحكام أهل الذمة - ابن القيم - ١/٢١٤-٢٣٦. دولة بن العباس - شاكر مصطفى - ١٠١/٢.

والقيام بحقها وحق أربابها، فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد إليه إلى بغداد من كل بلاد وملة.

وقد أمر سفراءه في أرمينية وسوريا ومصر أن يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الأكثر اعتباراً، ويبعثوا بها إليه، فكانت ذخائر آداب الأقاليم التي تغلب عليها تُجمع بكل اعتناء وتوضع أمام عرشه كأعظم جزية وأفخر التحف والهدايا عنده.. من آداب اليونانيين والبرانيين والعجم، وقد داخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة الترجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حرض الناس على قراءتها ورغبتهم في تعليمها^(١).

رابعاً: ومن آثار بطرس البستاني القومية إنشاء بعض الصحف العربية، وقد سبق بيان دور الصحافة في تأسيس الجمعيات القومية العربية^(٢). لقد اعتبرت صحف الجمعيات القومية العربية، عمل وتأسيس البستاني للصحف — ذات المنهج القومي —، قد جاء ملبياً لما ترغبه النفوس.

وكما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية تآقت الناس إلى منشورات سياسية واقتضت مصلحة الأمة إذاعة المبادئ الوطنية الصحيحة.. وإنشاء اللجنة والجانان والجنينة — وهي منشورات سياسية — وإحداث المدرسة الوطنية لإذاعة المبادئ الوطنية من طرف التعليم والتثقيف^(٣).

(١) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم - حسن السندي - ٢١٠. انظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن حركة الترجمة في بيان تلبس الجهمية - ٣٢٣/١ - مؤسسة قرطبة.

(٢) انظر: الفصل الثالث من الرسالة. ص: (٢٢٤)

(٣) مجلة المقتطف - الجزء الأول - من السنة الثامنة - آب سنة ١٨٨٣. ص: ٦.

قال القوميون العرب: لقد سعى البستاني إلى تخفيف حدة مشاعر الحقد الديني، بإصدار صحيفة أسبوعية صغيرة في بيروت باسم (نفير سورية) وكانت أول صحيفة سياسية أتيح لها الصدور في تلك البلاد، وقد وقفت معظم جهدها على الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة^(١)، وصحيفة نفير سورية تعتبر أول نشرة عربية ظهرت في سوريا إذ أنشئت سنة ١٨٦٠ (١٢٧٦هـ) ^(٢) وتتكون صحيفة نفير سورية، من صفحتين.. وتظهر على شكل رسائل وطنية، تتضمن نصائح مفيدة، لشدَّ عُرَى الألفة بين السكان. ولما أخلد الناس إلى السكينة أو قف نشرها^(٣).

وصحيفة الجنان التي أنشأها البستاني سنة (١٨٧٠م-١٢٨٦هـ) وهي: مجلة علمية أدبية سياسية عهدَ بإدارتها إلى ولده سليم، وكانت تصدر كل أسبوعين، وكانت الغاية منها محاربة التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن، وكان شعارها (حب الوطن من الإيمان) وكان يحرص على أن يبرز هذا الشعار على الصفحة الأولى مع العنوان في كل عدد، ويعتبر البستاني بأنه أول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان (حب الوطن من الإيمان)^(٤) وكان يشارك في الكتابة فيها عدد من الكتاب من البلاد العربية المجاورة ومن بلاد الشام نفسها^(٥).

(١) يقظة العرب-جورج انطونوس-١١٤.

(٢) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر المحجري إلى اليوم-حسن السندوي-٢٠٨.

(٣) لبنانيات-نقولا زيادة-٦٩.

(٤) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٤.

(٥) يقظة العرب-جورج انطونوس-١١٥.

وللدور المؤثر التي تؤديه صحيفة (الجنان) نالت اهتماماً والى سورية مدحت باشسا، حتى أنه كان يزور إدارتها في مجيئه لبيروت، ويث أفكاره الإصلاحية بواسطتها^(١) وكانت تُعنى عناية خاصة بعرض الآراء التي كان يدعو إليها مؤسسها، وأنها كانت حافزاً قوياً وجه الأفكار إلى التسامح الديني والنظرة الواسعة إلى الأمور^(٢).

أمّا صحيفة الجنة: فهي صحيفة سياسية أنشأها بعد الجنان بيضعة أشهر، وبالتحديد صدرت في حزيران ١٨٧٠ مرة في الأسبوع، ثم مرتين في الأسبوع^(٣).

وصحيفة الجينة: جريدة أنشأها بعد الجنة بزمان قليل، صدرت سنة ١٨٧١ وكانت تصدر أربع مرات في الأسبوع، ووكلي زمامها سليمان أفندي البستاني^(٤).

وقد قيل عن دور البستاني في إنشاء الصحف: إنه أظهر من البراعة والاجتهاد ما جعله موضع إعجاب الحملة التنصيرية، ونشر الصحف يتلو بعضها بعضها بممة لا تعرف الملل، وما يزال يكذب في خدمة البلاد بنشر الآداب بين طبقات أهلها^(٥).

(١) لبنانيات- نقولا زيادة- ٧١.

(٢) بقظة العرب- جورج انطونوس- ١١٥.

(٣) مقدمة كتاب: سليم البستاني- ميشال حجا- ٢٠.

(٤) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر المحجري إلى اليوم- حسن السندي- ٢٠٨. وانظر: مقدمة كتاب: سليم البستاني- ميشال حجا- ٢٠.

(٥) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر المحجري إلى اليوم- حسن السندي- ٢٠٥-٢٢٢- المطبعة الجمالية- مصر- الطبعة الأولى- ١٣٣٢هـ (١٩١٤م).

ومن الأمثلة على المقالات الصحفية التي نُشرت في مجلة الجنان: (علام نخلط الدين بالدنيا ونحط شأن السماويات بمزجها في الأرضيات، فنجعل لاعتقاداتنا دَخَلاً في أعمالنا، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية، فينشأ عنها ذلك الشقاق الذي طالما كرر الأمم وأتى بالحروب والويلات.

إن زماننا قد تغير فمن الحكمة أن نتبعه وقد تبدلت الأحوال، فالإصابة في مجارة ذلك التبديل، فما كنا نراه في أمس لا نراه اليوم لأن نسبتنا إلى دولتنا العلية، ونسبتها إلينا وصلاتنا الغربية وصلات الغرب عندنا قد أخذت غير المجرى المعهود وأصبحنا جميعاً رعية واحدة لراعٍ واحد عنده من الحلم ما يوافق لسين عريكتنا ومن الثأني ما يناسب ارتباكاتنا الناتجة عن التعلق ببعض الماضي، وتعلم بعض الأمور الجارية والتأهب لقبول ما سوف يجري.

ولذلك لا بد من أن نكون في معابدنا إسلاماً وأرمن ودروزاً وموارنة وغير ذلك. وفي ميادين الأعمال عثمانيون لنا راية واحدة، استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصدقة..^(١).

وهذه الدعوة التي ذكرتها مجلة الجنان، هي من ضمن الدعوات التي تنادي بها الجمعيات القومية العربية، خلال إقرارها المعتقد القومي.

وجاء عن موقف المجلة من ارتباط الدين بالسياسة: (كثيراً ما مُزج الدين بالسياسة، ونتج من ذلك أضرار لا تحصى.. لأنهما ضدان، لأن أساس الدين هو

(١) مجلة الجنان-الجز ٦- سنة ١٨٧٤-ص: ١٨١-نقلًا من كتاب: الأعمال المجهولة-سليم البستاني-

الاختيار بحسب الاقتناع، وهو يتعلق بكل إنسان على حدة، وأما أساس السياسية الرضوخ لما يستحسنه أكثر جمهور ارتبط أفرادهم ببعض برباطات الصوالح المدنية، وهذا الرضوخ هو إلزامي بخلاف الرضوخ للدين فإنه اختياري .. ولا يوجد دين يمنع أهله من موافقة روح العصر في الأمور المدنية، لأن الدين لا يتعرض للأمور المعاشية^(١).

أيّدت المجلة الثورة الفرنسية، إذ رأت فيها إعادة حقّ سلبّ منهم، جاء فيها: (إن الذي حمل فرنساويين على إثارة الثورة هو ما كانوا يعتقدونه من التعدي الواقع على حقوقهم... فهاجت الأمة وماجت وطلبت ما كان يحق لها أن تطلبه من الحقوق، ولو لم تتجاوز حدود الاعتدال في ثورتها لتقررت في صدور التواريخ بدون ذكر الحوادث التي تسود بياض بعض اجتهاداتها).

وأكدت مجلة الجنان على أن الثورة الفرنسية، هي بداية عصر الحقوق وفي أوروبا خاصة، وليس المقصود حقوق كل أمة بالنسبة إلى غيرها، ولكن حقوق كل أمة بالنسبة إلى دولتها.. وجمع الجنسيات بعضها لبعض، وأن تساعد كل أمة على أن تسوس نفسها.. وحاصل الكلام: (إن الثورة الفرنسية جمعت أمم أوروبا على طلب حقوقها والمحافظة عليها، ومنذ ذلك الزمان أخذت الدول العاقلة في الميل عن سبل سياستها الأولى، وفي إعطاء رعاياها حقوقها)^(٢).

(١) سلسلة الأعمال المجهولة - سليم البستاني - ١٥٠.

(٢) الأعمال المجهولة - سليم البستاني - ١٧٤.

خامساً: لقد أخرج البستاني دائرة تسمى (دائرة المعارف) كتب نموذجاً عنها ورفعته إلى ملك مصر الخديوي إسماعيل^(١) والتمس من لدنه الإعانة فصدرت إرادته بإمداده بما يكفل ظهور هذا الكتاب إلى حيز الوجود.. وأمدته بمكتبة عظيمة حوت أجل الكتب وأنفعتها للاستعانة بها على تحرير الدائرة^(٢).

وقد قال أعضاء الجمعيات القومية العربية، عن دائرة المعارف: إنها قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف مواضيعها وأزمانها وكان قد شرع فيه عام ١٨٧٥ يعاونه ولده سليم وبعض الكتاب من المتأدين وطائفة من خريجي مدرسته الوطنية في بيروت وسماه (دائرة المعارف).

وهو كتاب فريد لم ينسج على منواله في اللغة العربية، أصدر منه ستة مجلدات وتوفي وهو في بداية المجلد السابع، فآتم السابع والثامن ابنة سليم وتوفي قبل الشروع في التاسع فأصدر أبناءه الباقيون الجزء التاسع بمعاونة ابن عمهم سليمان أفندي البستاني. ثم حالت موانع أدت إلى إيقاف العمل في بيروت ومضت على ذلك بضع سنوات إلى أن قدم القاهرة سليمان وأخذ في إتمام الدائرة.. فصدر الجزء العاشر والحادي عشر سنة ١٩٠٠ (١٣١٧هـ) عند كلمة عثمانية ثم توقف العمل^(٣).

(١) إسماعيل بن إبراهيم بم محمد علي الكبير، ولد في القاهرة سنة ١٢٤٥هـ ولي مصر سنة ١٢٧٩هـ وهو أول من أطلق عليه لقب الخديوية من رجال أسرته، عزل سنة ١٢٩٦هـ وقضى بقية أيامه في أوربة والآستانة. وتوفي في الآستانة سنة ١٣١٢هـ ودفن بالقاهرة. انظر: (الإعلام- الزركلي- ٣٠٨/١).

(٢) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلى اليوم-حسن السندوي-٢٠٨.

(٣) تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر-جرجي زيدان-٣٩/٢-دار مكتبة الحياة-بيروت-لبنان. وانظر الروائع-المقدمة

كما أن للبستاني كتاباً سماه محيط المحيط: وهو قاموس عربي جليل .. أضاف إليه طائفة من الألفاظ العامية والكلمات الأعجمية الدائرة على الألسنة ورفعته إلى السلطان عبدالعزيز^(١) فأثابه عليه الوسام المجديّ الثالث وجائزة من المال، وشاع هذا الكتاب شيوعاً عظيماً حتى أصبح الآن نادر الوجود^(٢).

ثانياً: ناصيف اليازجي:

أ- تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

هو: ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط، الشهير باليازجي. ولد سنة ١٢١٤ (١٨٠٠)، وأصله من حمص بسورية، مولده في (كفر شيما) من قرى ساحل بيروت ببلنان^(٣).

هاجر جدّه من حمص مع جماعة من ذويه سنة ١٦٩٠ (١١٠١هـ) .. فتوطن أناس منهم في ساحل لبنان في الجهة المعروفة بالغرب، ولا تزال بقية أسرهم في حمص^(٤) ونواحيها. وهم عشيرة كبيرة من ذوي الوجاهة واليسار،

(١) السلطان عبدالعزيز: ولد في شعبان سنة ١٢٤٥هـ (١٨٣٠م)، تول السلطة سنة ١٢٧٧هـ (١٨٦١م) ويعتبر من أوائل السلاطين الذين أدخلوا العلمانية في الدولة العثمانية، كما اتسم عهده بالفن والإسراف والبذخ مما أدى إلى خلعته بفتوى من شيخ الإسلام حسن خير الله أفندي، ليموت بعد ذلك متحرراً سنة ١٢٩٣هـ (انظر: تاريخ الدولة لعلية العثمانية-محمد فريد-٥٣٠-٥٨٠).

(٢) أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر المحجري إلى اليوم-حسن السندوي-٢٠٨.

(٣) الإعلام-الزركلي-٣٥٠/٧.

(٤) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-١٦/٢.

وأكثرهم من طائفة الروم الأرثوذكس، أما فرع ناصيف فإنه ينتمي إلى الروم الكاثوليك^(١).

يعتبر ناصيف اليازجي الشخصية الثانية، من الشخصيات التي أثرت في تأسيس الجمعيات، والدعوة للفكر القومي. فقد قيل عنه عميد بيت اليازجي، وركن من أركان النهضة العلمية في سوريا. وهو أشهر من أن نعرف به، لما كان له من القدر المعلى في اللغة والشعر والأدب^(٢).

وتأتي أهمية ناصيف اليازجي من كونه ملازماً لبطرس البستاني في الجانب التاريخي، ولهذا نجد بعض القوميين الذين أرخوا للفكر القومي في تلك المرحلة، كتبوا عن الشخصيتين معاً، مع أن ناصيف أسن من بطرس^(٣).

وهو نصراني المعتقد ألف قصيدة مطبوعة ضمن قصائد في ديوانه بعنوان (القول الصحيح في لاهوت المسيح) وتبين عقيدته، قال فيها:

نحن النصراني آل عيسى المنتمي	حسب التأنس للبتولة مريم
وهو الإله ابن الإله وروحه	فثلاثة في واحد لم تُقسَم
للأب لاهوت أبه وكذا ابنه	وكذا هما والروح تحت تَفْنَم
عن آدم قد قال صار كواحد	منّا بلفظ الجمع من ذلك الفم
خلق البسيطة واحداً في جوهر	أحد لخدمة آدم المُستَخدم
لكن عصاه بزلة لا تمنحي	إلا يارسال ابنه المُتجسّم

(١) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٢/١-بيروت-المطبعة الأدبية-١٩١٣.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية-جرجي زيدان-٢٣٤/٤.

(٣) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٠٩.

فَأَتَى وَخَلَّصَهُ وَخَلَّصَ نَسْلَهُ ذَاكَ الْمَخْلُصُ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ

وعن معتقده في مسألة صلب المسيح وحمله لخطاياهم، قال:

هَذَا مَسِيحُ اللَّهِ فَادِينَا الَّذِي صَلَّبَتْهُ طَائِفَةُ الْيَهُودِ كَمُجْرِمٍ
بَطْبِيعَةٌ بَشَرِيَّةٌ قَدْ أَلَمَّتْ وَطْبِيعَةُ اللَّهْوَتِ لَمْ تَتَأَلَّمْ
حَمَلَ الْجِرَاحَ بِنَفْسِهِ مُتَعَمِّدًا حَتَّى تَكُونَ لُجْرَحَنَا كَالْمَرْهَمِ
قَدْ كَانَ مِنْهُ طَوْعًا وَهُوَ قَدْ وَافَى لَهُ يَفْدِي بِهِ الدَّمَ بِالدَّمِ^(١).

.. الخ ما قال عن معتقده النصراني في الإنجيل وصدقه، وعدد طوائف النصراني. وبيان فضائل النصرانية.

تلقى ناصيف اليازجي بواكير علمه عن طريق القساوسة في الأديرة، حيث كانت وسائل التعليم إذ ذاك محصورة في جماعة الأكليروس، فتلقى القراءة البسيطة على يدي القس متى من قرية بيت شباب.. ولما لم تكن الكتب مسورة في ذلك العهد لقلة المطبوع منها، إذ لم يكن في البلاد السورية ولا المصرية إلا مطابع نادرة وقلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية. كان جلُّ اطلاع اليازجي كتب يستعيرها من بعض الأديرة والمكاتب القديمة، فمنها ما يقرؤه مرة فيحفظ زبدته ومنها ما ينسخه بخطه^(٢).

ويعتبر ناصيف اليازجي ممن درس مستقلاً بذاته^(٣). وساعده في تحصيل العلم والده عبدالله الذي كان طبيباً على نهج ابن سينا، فعَهِد بتأديب ناصيف

(١) ديوان الشيخ ناصيف اليازجي (النبذة الثالثة وهي المعروفة (بثالث القمرين)-٧٧-٨١-المطبعة الأدبية-بيروت-سنة ١٩٠٣.

(٢) تراجم مشاهير الشرق-حرجي زيدان-١٦/٢.

(٣) بشر بين السلطان والعريز (١٨٠٤-١٨٤١)-أسعد رستم-٢٣٤.

إلى أحد القسوس فتلقى عليه مبادئ القراءة والكتابة. .. فنال حظاً وافراً من فنون الآداب^(١).

ولمكانته اللغوية راسله كبار العلماء من مستشرقين ووطنيين في البلاد العربية ومدحوه بقصائد رائعة ومقالات شائقة عارفين مترلته العلمية^(٢).

وقد اقتصر في تلقيه للعلوم على تعلم اللغة العربية وآدابها، فمما يذكره القوميون عنه أن أصبحت اللغة العربية هي غرامه الوحيد في حياته الفكرية.. وكانت هي اللغة الوحيدة التي يعرفها، ومات دون أن يتعلم غيرها^(٣) ولعلَّو مكانته في اللغة أصبح أحد أركان النهضة اللغوية في بلاد الشام^(٤).

كانت بدايات بروز ناصيف اليازجي — كما يقول عنه مؤرخو نصارى العرب — وهو في السادسة عشرة من عمره بما كان ينظمه من قصائد.. وصل خبره إلى بطريارك الروم الملكيين الكاثوليك، فدعاه ليكتب له في دير (القرقفة) الواقع على هضبة من هضبات كفر شيما^(٥)، وكان ذلك سنة ١٨١٦ (١٢٣١ هـ). فلبث ناصيف بهذه الوظيفة مدة سنتين حتى نقل البطريرك إقامته إلى الزوق^(٦).

(١) أعيان البيان-حسن السندوي-٦٠.

(٢) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-١١-المطبعة المخلصية-لبنان-الطبعة الثانية-١٩٤٥.

وانظر: أعيان البيان-حسن السندوي-٦٠.

(٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١١.

(٤) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-١٦/٢.

(٥) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١١.

(٦) تاريخ الصحافة العربية-فليب دي طراز-٨٦/١.

وقد يعتبر من المؤثرات الفكرية على حياة ناصيف اليازجي مكوثه في ديوان الأمير بشير الشهابي^(١)، حيث بلغت شهرة ناصيف الأمير بشير حاكم لبنان فتخذه من كتاب ديوانه بتدين من ١٨٢٨ (١٢٤٣هـ) إلى ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ).

فلما زار الشاعر الفرنسي دي لامرتين — الذي يعتبر من مشاهير الشعراء الفرنسيين، وزعيم الحركة الرومنطيقية — الأمير بشير في (بتدين) جالس الشيخ ناصيف وكتب عنه في رحلته^(٢) في كتابه رحلة الشرق^(٣).

ويصف اليازجي دولة بشير الشهابي، بأن لها آثار حسنة في البلاد.. فهم الذين مهّدوا البلاد وذلّلوا صعابها وكسروا عادية المردة والعصاة من أهلها، وقطعوا العداوات والفتن التي مرت عليها دول شتى وهي منتشرة بين الناس^(٤).

أمضى ناصيف اليازجي في الديوان الأميري اثني عشر عاماً في خدمة بشير الشهابي، وفي عام (١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م) نُزعت حكومة لبنان من يد الأمير

(١) بشير بن قاسم بن عمر الشهابي، أكبر الأمراء الشهابيين النصارى، وكان لهم شأن في لبنان ولد سنة ١١٧٣هـ، واتصل بأحمد الجزائر وتولى إمارة لبنان، وناصر إبراهيم باشا ضد الدولة العثمانية، نفي إلى مالطه، وطلب العودة إلى الأستانة ومات فيها سنة ١٢٦٦هـ. انظر: (الإعلام- الزركلي-٥٧/٢).

(٢) المشايخ اليازجيين - عيسى معلوف - ١٠. وانظر: دائرة المعارف الماسونية - حنا ابى راشد - ٦٠٠/١.
(٣) الرحالة الفرنسيون في موطن الرز - أميرة جبر - ١٣ - مؤسسة خليفة - البوشرية - الطبعة الأولى - ١٩٩٣.

(٤) مجلة الهلال - الجزء الأول من السنة الثالثة عشرة - ٢١ رجب سنة ١٣٢٢ - ص: ٥٢١. مقال بعنوان (جبل لبنان). وانظر عن نسبة هذا المقال لليازجي: الآداب العربية في القرن التاسع عشر - لويس شيخو اليسوعي - ٣١/٢. المشايخ اليازجيين - عيسى اسكندر معلوف - ١٧.

وُنُفِيَ إلى مالطة رديحاً من الزمن، ثم جاءه أمر سلطاني يسمح له بالإقامة في أي مكان في المملكة عدا سورية^(١).

وسبب نزع السلطة من يد الأمير بشير، أنّ الأمير بشير اتفق مع إبراهيم باشا^(٢)، قائد جيوش والده محمد علي باشا بالانفصال عن الدولة العثمانية، وذلك سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م)^(٣).

ولما في حركة إبراهيم باشا من تأييد لمطلب الجمعيات القومية، وهو الانفصال عن الدولة العثمانية، فقد علق أعضاء الجمعيات على هذه الحركة آمالاً، وهكذا تكرر حركة مصر الهادفة إلى سلخ مصر والشام عن الدولة العثمانية وإقامة دولة مستقلة متحدة جديدة^(٤). واعتبر أعضاء الجمعيات إبراهيم باشا باذلاً أقصى الجهد في نشر أفكاره عن نهوض العرب نهضة قومية، وكان يحاول أن يقنع سكان البلاد بأن فجر عهد جديد أشرق عليهم بتولي محمد علي الحكم، واستطاع في زمن لم يتجاوز عاماً، أن يقيم نظاماً جديداً يعتمد على المساواة في الحقوق الدينية والمدنية^(٥).

كما وقد اهتم بشير الشهابي بالحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر وأرسل أحد مستشاريه ليشهد عن كذب، مجرى الأحوال، وليرسل تقريراً عن تلك الحملة وما رافقها^(٦).

(١) أعيان البيان-حسن السندوي-٦٠. وانظر: العرب والعروبة-محمد عزة دروزة-٢/٢١٦.

(٢) إبراهيم باشا-بيير كرتيس-ترجمة: محمد بدران-لجنة التأليف والترجمة-١٩٣٧.

(٣) العرب والعروبة-محمد عزة دروزة-٢/٢٠٩.

(٤) المصدر نفسه-٢/٢٠٩.

(٥) يقظة العرب-جورج انطونوس-٩١.

(٦) لبنانيات-نقولا زيادة-١٠٦.

لقد كانت هذه الأحداث والأفكار، في حكم الأمير بشير الشهابي، واليازجي من رجال الدولة، ومن المقربين في ديوانه.

ولكن بعد فشل حملة إبراهيم باشا، والقضاء على حكم الشهابي والقبض عليه، اتجه ناصيف اليازجي إلى بيروت وأقام بها مع ذويه، وعكف على المطالعة والتدريس، وتأليف الكتب للناشئين ونظم الأشعار، ومراسلة الأدباء في الأقطار، فذاع صيته، وعلت مكانته، فكان نجمة أهل الأدب وشرعة أولى الفضل^(١).

وقد أصيب ناصيف اليازجي في عام ١٨٦٩ (١٢٨٥هـ)، بمرض عضال فانفلج فالجاً نصفياً عطل نصفه الأيسر، ثم أصابته سكتة دماغية فتوفي فجأة بتاريخ ٨ شباط ١٨٧١ م (١٢٨٧هـ) في منزله الكائن في زقاق البلاط بالقرب من (المدرسة الوطنية).. فجرى لمشعبه احتفال عظيم جداً اشترك فيه العلماء والكبراء والتجار وتلامذة المدارس وجم غفير من الناس من النصارى والمسلمين واليهود...^(٢).

ونشرت بعض الصحف أقوالاً في رثائه، فمما قالوا: (إن الشيخ ناصيف اليازجي أشهر شعراء العرب في هذا العصر، قد توفي في بيروت عن إحدى وسبعين سنة... وقد مُدحت تأليفه في المدرسة العربية في بلاد جرمانيا، وترجم منها شيء إلى اللغة الجرمانية، وبالْحَقِيقَةُ فإن الآداب العربية قد تكبدت بفقدانه

(١) أعيان البيان-حسن السندي-٦٠.

(٢) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٨/١.

خسارة عظيمة لا تعوض، وقد ترك مؤلفات عديدة في كافة الفنون العربية تحلّد له ذكراً مؤبداً، وقد تأسف عليه جميع أهل الأدب من أبناء وطن وأجانب^(١).

وقد رثاه ابنه إبراهيم اليازجي قائلاً:

فخر النصارى صاحب الغرر التي ضربت على ذكرى البديع وأحمدا
هذا عماد العلم مال به القضا فأمال ركناً للعلوم مشيداً^(٢)

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية

العربية:

يتجلى الدور الذي أدّاه اليازجي في قضية تأسيس الجمعيات القومية عبر ما كتبه في مؤلفاته وما قاله فيه غيره في الأمور التالية:

١. اعتبار مكانته العلمية: بلغ من كل علم من علوم العربية لبابه ودرس أشهر مصنفاته، وله في جميعها تأليف مشهورة، هي اليوم عمدة التدريس في أكثر المدارس المسيحية، وله ثلاثة دواوين شعرية تعد من عيون الشعر وكثير منها محفوظ على الألسنة، ولا سيما الأبيات الحكمية منها وهي في شعره أكثر من أن تحصى، وله المقامات المشهورة باسم مجمع البحرين^(٣).

(١) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-٤٢. وانظر: مجلة النجاح البيروتية-وقد نشرت ترجمة الرثاء في المجلد ٢- الجزء ٣٧-تاريخ ٢٢ أيار سنة ١٨٧١ الصفحة ٥٨٦ .

(٢) رسائل اليازجي-إبراهيم اليازجي-١٠٢-مطبعة اليوسفية-مصر-١٩٢٠.

(٣) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-١٦/٢.

وقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية اليازجي شاعرَ القرن التاسع عشر وهو مطلع النهضة الحديثة وعلماً من أعلام البيان، وسيداً من سادة العلم وأركان النهضة العلمية في لبنان^(١).

وأقبل أكابر الشعراء من جميع الأنحاء العربية على مراسلته ومدحوه بما دلّ على وفور فضله وعلو كعبه في الشعر والأدب^(٢).

ولهذه المكانة العلمية التي وُصف بها اليازجي سعى إليه السعاة، وتخرج على يديه الشباب، ولا سيما طلبته الذين أخذوا عنه العلم في مختلف المعاهد والمدارس التي علم فيها، فخلّف بذلك أجيالاً من المتعلمين المثقفين كانوا نواة النهضة التي آتت أكلها في الأجيال التي تلت جيله... وأصبحت كتبه منهل السورّاد يعترفون منها زلال الأدب ومعين العلوم، فما من أديب ولا متأدب في عصره وبعد عصره إلا واستقى من ذلك النبع الفياض^(٣).

وقد طُبع ما دار بينه وبين أكابر الشعراء من العراق ومصر وغيرهما في ديوان مخصوص عنوانه (فاكهة الندماء في مراسلات الأدباء)^(٤)، وعندما اطلع عليه أحد تلامذته، قال: قد عُنتِ باستقصائها فوجدت شيئاً كثيراً من تلك الرسائل — نثرية وشعرية — قد أُغفلت في الطبع فجمعتها عندي^(٥).

(١) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-٣٦ و٣٠.

(٢) تراجم مشاهير الشرق-جرجي زيدان-٢٠/٢.

(٣) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١٨.

(٤) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٦/١.

(٥) الشسيخ ناصيف اليازجي -عيسى سابا-٢٢. والمحقق هو : سليم دياب الطرابلسي. وهو تلميذ ناصيف اليازجي، وكان طبيباً وكان ممن عالج ناصيف اليازجي-انظر: تاريخ مشايخ اليازجيين -

٢. التعليم والتدريس: قال عنه أعضاء الجمعيات القومية، بعد عودته من خدمة الشهابي: مكث في بيروت وتفرغ للمطالعة والتأليف والتعليم ومراسلة معاصريه من الشعراء. وتخرج عليه طبقة من الأدباء، نبغ كثيرون منهم في العلم أو التجارة أو السياسة أو غيرها، وكان حجة في اللغة والأدب وكثير من أشعاره جرى مَجْرَى الأمثال لشيوع مؤلفاته بين أيدي الطلاب ولا سيما في سوريا^(١).

ومن تلك المدارس التي أقام بها منقطعاً للمطالعة والتأليف والتدريس، (المدرسة البطريركية) للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٤ (١٢٨٠هـ) ثم (المدرسة الوطنية) للبستاني، وكذلك (المدرسة الكلية) للأمريكان^(٢). وهي التي تُسمى الجامعة الأمريكية، فدرس فيها اللغة العربية وآدابها، وكان في جملة طلابه الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر — وهما من أعضاء الجمعيات القومية العربية — وغيرهما^(٣).

وقد اتفق اليازجي مع البستاني في العمل مع المدارس التنصيرية الأمريكية، فأخذ اليازجي في بيروت يحترف التعليم في مدارس الأمريكان، ويصحح الكتب في مطبعاتهم.. وانقطع إلى المطالعة والتعليم، فكان بيته مباءة العلماء، ومرجع

(١) تاريخ آداب اللغة-جرجي زيدان-٢٣٤/٤.

(٢) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-٨٦/١. وانظر: المشايخ اليازجيين- عيسى معلوف-١١.

(٣) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١٢.

الفتاوى الأدبية، وعكاظ المحاضرات العلمية والمطارحات اللغوية^(١). كما قام اليازجي بتعليم اللغة العربية للمنصرين الأمريكيين ومنهم الدكتور فانديك^(٢).

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن تدريس اليازجي وغيره من العرب في مدارس الحملات التنصيرية، فيه خروجٌ للعلم والأدب في بلاد الشام من نطاق البيئات الدينية إلى صفوف الشعب، وأصبح يشمل المرأة مربية الجيل الجديد، كما يشمل الرجل^(٣).

٣. **تأليف الكتب** : يعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن اليازجي هو أول نصراني راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية.. وهو بشهادة أبناء جيله، (كان من نوادر الدهر وأفراد رجال العصر الذين باهت بهم الأيام ونُشرت آثارهم بأسنة الأقلام)^(٤).

وكانت الغاية من الكتب التي ألفها في النحو والمنطق والبلاغة والعروض أن تُدرّس في المدارس، ولا سيما مدارس البعثة التبشيرية الأمريكية، وكانت تهدف إلى ما تهدف إليه الحركات والجمعيات التنصيرية، فلم يكل اليازجي قط عن دعوته إلى إحياء الأدب القديم، حتى نجح في إقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيدة للنجاة.. وكانت دعوته تثير انتباه الناس على

(١) المصدر نفسه - ١١.

(٢) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/١٤٥.

(٣) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب-محمد جميل بيهم-١/٢١٣.

(٤) ناصيف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-٣٠/٣٦.

اختلاف عقائدهم (النصارى والمسلمين)، وكان يهيب فيهم .. أن يذكروا تراثهم المشترك وأن يشيدوا على أسسه مستقبلاً إخواناً متآلفين^(١).

ويرى مؤرخو نصارى العرب أن تأليف اليازجي للكتب اللغوية أراد منه كعالمٍ مسيحي أن يضع لأبناء أمته مؤلفات على طراز المؤلفات الإسلامية التي وضعها علماءهم، فشرع في وضع أرجوزتين في الصرف والنحو ونسج على غرار المقامات البدعية والحريية، وزاد عليها كثيراً من التفننات في الشعر والنثر، وشرحها بقلمه فتضاعفت فائدتها لما أظهره في الشرح من أخبار العرب وأمثالها وعاداتها وأخلاقها، وقد ألف اليازجي في جميع فنون اللغة العربية ما عدا الفقه، ووضع أطول المؤلفات وأخصرها في أكثر القواعد اللسانية^(٢).

ومن تلك الكتب التي ألفها اليازجي:

أ — كتاب لمحة الطرف في أصول الصرف: أرجوزة في سبع عشرة صفحة، مشروحة بقلمه، ألفها سنة ١٨٥٤ (١٢٧٠هـ) مقتصراً فيها على ما تهم معرفته من هذا العلم. طبعت في المطبعة المخلصية للروم الكاثوليك ببيروت سنة ١٨٧٠.

ب — كتاب طوق الحمامة: وهو مختصر نثري يقع في عشرين صفحة صغيرة طبع في المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥.

(١) بقظة العرب - جورج انطونيوس - ١١١.

(٢) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف - ١٢-١٣.

ج - كتاب نار القرى في شرح جوف الفرا: أرجوزة مستفيضة في الأبحاث النحوية، ضم إليها ما تفرق في كتب أئمة النحو، خدم بها المتأدين الآخذين بعلم العربية خدمة تذكر فتشكر.. طبع في بيروت سنة ١٨٦٣^(١).

د - كتاب مجمع البحرين: وهو من أشهر تأليفه وأعظمها.. وهي ستون مقامة ضمَّها من بلاغة الإنشاء والفوائد اللغوية والعلمية وتواريخ العرب وأمثالهم ما دل على غزارة محفوظة وقوة عارضته في النظم والنثر^(٢)، كما تحتوي على هزل القول وجدّه، أودعها فنوناً من الآداب، وصنوفاً من بديع الإنشاء، وسائر الأمثال.. وهي مشهورة متداولة بين أيدي المتأدين، وطُبعت مراراً^(٣).

هـ - كتاب مختارات اللغة: يذكُر من ترجم لليازجي أن له كتاباً في خزانة دير الشرفة في لبنان للسريان الكاثوليك بهذا العنوان، وصف في برنامج المكتبة المطبوع في الصفحة ٤٤٨. بما نصه: مؤلف هذا الكتاب أشهر من أن يوصف وكتابه هذا يدل على تضلعه من العربية وهو من التصانيف المستحقة باعتبار اللغويين^(٤).

و - ديوان شعر: في ثلاث نبد لطيفة الحجم، دعاها: النبذة الأولى، ونفحة الريحان، وثالث القمرين، فيه جيد الشعر ما لا تكاد تجد بعضه في أكثر شعر مَنْ عاصره^(٥) كما قال عنه المترجمون.

(١) ناصيف اليازجي - عيسى ميخائيل سابا - ٢٠.

(٢) تاريخ الصحافة العربية - فيليب دي طراز - ٨٤/١.

(٣) أعيان البيان - حسن السندوي - ٦٢. وانظر: الشيخ ناصيف اليازجي - عيسى سابا - ١٢.

(٤) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف - ١١.

(٥) أعيان البيان - حسن السندوي - ٦٢.

ز — كتب مدرسية: يرى أعضاء الجمعيات القومية العربية أن اليازجي هو أول من راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية^(١)، وهذه الكتب تختلف فنونها ما بين منظوم ومثور في النحو والصرف والبيان والعروض وجلها مطبوع متداول^(٢). ومنها: (كتاب مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد)، و (كتاب فصل الخطاب في اللغة والإعراب).

وقد قيل عن أثر هذه الكتب المدرسية: إن اليازجي بعث بها نهضة أدبية عندما اختصر القواعد العربية بكتب تدريسية، لم يتكلف في عبارتها^(٣)، ولذا أصبحت هذه الكتب عمدة التدريس في أكثر المدارس السورية وبعض المدارس المصرية^(٤).

هذه بعض الكتب العلمية التي كتبها اليازجي، وذكرها المترجمون في سيرته وهي تعد من أعظم الخدمات العلمية التي قدمها للحملات التنصيرية.

٤. تأسيس الجمعيات: لقد سبقت الإشارة إلى دور اليازجي مع الحملة التنصيرية، ومشاركته لهم في التدريس، وأما عن دوره في تأسيس الجمعيات القومية، فيعتبر اليازجي العضو العامل القوي الذي أيد الدكتور إيلي سميث في

(١) تاريخ آداب اللغة العربية- جرجي زيدان- ٢٣٤/٤.

(٢) أعيان البيان- حسن السندي- ٦٢.

(٣) الشيخ ناصيف ايازجي- عيسى سابا- ٢٤. وانظر عن كتبه:

١- تاريخ آداب اللغة- جرجي زيدان- ٢٣٤/٤.

٢- تاريخ الصحافة العربية- فيليب دي طراز- ٨٤/١.

(٤) تاريخ الصحافة العربية- فيليب دي طراز- ٨٤/١.

إنشاء الجمعية السورية سنة ١٨٤٧م، ويُرجع بعض الكتاب فكرة تأسيس الجمعية السورية إلى اليازجي^(١).

وبعد أن تولى اليازجي تعليم المنصرين للغة العربية أصبح خطيباً، ويلقي القصائد الأدبية في الجمعية السورية، التي تعتبر جمعية علمية أدبية عقدت ثلاثاً وخمسين جلسة قانونية، وأكثر من عشرين جلسة عمومية.

ومن خطب اليازجي في هذه الجمعية خطابه (في علوم العرب ضمنه بحثاً مفصلاً في أدوار ترقّي اللغة العربية وآدابها، كما ألقى في الجمعية مقامته (العقيقة) التي طبعت في مجمع البحرين^(٢)).

ومن خطبه: (كان الملوك ومن يليهم يعرفون كثيراً من العلوم ويتمكنون منها. ولذلك كانوا يُعنون بشأن العلم والعلماء، ويعرفون حقهم. وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا)^(٣).

ومن صور تقديم المساعدات الأدبية للمنصرين، والمساهمة في نشر المعتقدات النصرانية، مساعدة اليازجي للمنصرين في ترجمة (الكتاب المقدس): ونظّم لهم المزامير وبعض الأغاني الدينية. وصحح مطبوعات المطبعة المخلصة الخاصة بهم، في بيروت^(٤).

(١) انظر: ١- تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/٨٥. ويقظة العرب-جورج انطونوس-

١١٦. وناصف اليازجي-عيسى ميخائيل سابا-١٢.

(٢) المشايخ اليازجيين عيسى اسكندر معلوف-٤٢.

(٣) أعيان البيان-حسن السندي-٦٦.

(٤) تاريخ الصحافة العربية-فيليب دي طراز-١/٨٥.

ثالثاً: طاهر الجزائري:

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

هو طاهر بن صالح^(١) بن أحمد بن موهوب الجزائري، ولد بدمشق سنة ١٢٦٨هـ، ودعاه والده بـ(الطاهر)^(٢)، وكان قد هاجر والده من الجزائر إلى دمشق في سنة ١٢٦٣هـ، وكان من بيت علم وشرف، وتولى بدمشق قضاء المالكية^(٣). وصار الشيخ صالح مفتي المالكية للجزائريين في دمشق، واشتهر بمعارفه وأخلاقه، وتوفي سنة (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م) عن ستين سنة وترك أولاداً اشتهر منهم المترجم له، وابن شقيقه سليم الجزائري، الذي له في تهذيبه اليد الطولى^(٤).

وقد بذل والده المرحوم عنايته بتعليمه في بعض المكاتب البسيطة ومكتب الرشدية، الذي نال فيه شهادته ودرس عليه بعض العلوم وعلى الشيخ عبدالغني الميداني^(٥). فنسخ في العربية وآدابها^(٦) وتلقى العلوم الطبيعية والرياضية من علمائها كنبوغ خريجي المدرسة الحربية^(٧).

(١) انظر ترجمته في الإعلام-الزركلي-١٨٩/٣.

(٢) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٩-دار الفكر-سورية-دمشق-١٤٠٤هـ.

(٣) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٦٨. وانظر: تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-١٣٩.

(٤) مجلة الهلال/مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ ١١/٦/١٣٢٨-المقال عيسى اسكندر المعلوف/ص: ٤٥١.

(٥) عبدالغني بن طالب بن حمادة الغنيمي الشهير بالميداني نسبة إلى محلة الميدان بدمشق، ولد بدمشق سنة ١٢٢٢هـ وأخذ عن فضلائها كإمام المحدثين عبدالرحمن الكزبري والفقير الشهير محمد أمين عابدين والشيخ حسن البيطار، وكان جل انتفاعه منه أشتهر بالفقه الحنفي، وتفوق به وصنف مصنفات حسنة ورسائل كثيرة وتوفي سنة ١٢٩٨هـ. انظر: (الإعلام-الزركلي-٣٣/٤).

(٦) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-بتاريخ ١١/٦/١٣٢٨-المقال عيسى اسكندر المعلوف-ص: ٤٥١.

(٧) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٧٣.

ويتحدث تلامذة الشيخ طاهر عن المراحل التعليمية الأولى من حياته بأنه التحق بالمدرسة الجمقمقية الاستعدادية* فتخرج منها، بعد أن تطبع بطباع علمائها ومن أبرزها الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذ من آدابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأها طبقات المتأخرين، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضّاعين^(١).

وقد نزعت نفسه إلى جمع الكتب منذ كانت سنه سبع سنوات^(٢)، ومنذ أن كان في المدرسة الابتدائية أخذ يبتاع (يشترى) الدشوت والرسائل المخطوطة من دربهات كان يرضخ بها له والده لخرجه... وكان كلما أحرز الشيخ شيئاً من الأوراق والأسفار طالعه بإمعان وخبّاه وحرص عليه، واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الأسفار بلغت بضعة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة^(٣)، واستمرت معه الرغبة في جمع المخطوطات والكتب النادرة إلى آخر حياته^(٤).

● مدرسة قديمة تقع قرب الباب الشمالي للمسجد الأموي بدمشق وفي الشرق من ضريح صلاح الدين الأيوبيين جدد بناءها سيف الدين حمقمق الذي تولى نيابة دمشق سنة ٨٢٢ هـ فنسبت إليه. انظر: أشهر الأمثال- طاهر الجزائري- (مقدمة الكتاب- مازن المبارك)- ٩- دار الفكر المعاصر- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى- ١٤١٥ هـ.

(١) كنوز الأجداد- محمد كرد علي- ٩.

(٢) مجلة الهلال- مجلد ٢٨- الجزء ٥- بتاريخ ١١/٦/١٣٢٨- المقال: لعيسى اسكندر المعلوف- ص:- ٤٥١.

(٣) كنوز الأجداد- محمد كرد علي- ١- (بتصرف).

(٤) مجلة الهلال- مجلد ٢٨- الجزء ٥- بتاريخ ١١/٦/١٣٢٨.

مات والده وهو لما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، فاعتمد على نفسه في المطالعة والتنقيب والمراجعة والتحقيق، وتفقد المكاتب والوقوف على نفائسها فتمكنت فيه ملكة التأليف وجمع الكتب النادرة والمخطوطات النفيسة، فوفّق إلى إحراز كثير منها في دمشق، وفي أسفاره، فصار مرجعاً في فن وصف المخطوطات، ومعرفة مظانها والمفيد منها^(١).

ولما وصّف به الشيخ طاهر من اتساع الصدر لجميع علوم المدنية الحديثة^(٢)، فقد درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية، أخذها عن علماء من الترك وغيرهم.. ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركية.. وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية..^(٣) وحذق اللهجة الليبية وهي لهجة قبائل الجزائر المغربية^(٤).

وقرأ جميع ما طالت يده إليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب، أما المخطوطات التي طالعتها ولخصها فتعد بالمئات^(٥). ومما ساعده على التحصيل العلمي، قوة حافظته التي لا تكاد تنسى ما تَمُرّ به مهما طال العهد^(٦).

(١) مجلة الهلال - مجلد ٢٨ - الجزء ٥ - بتاريخ ١١/٦/١٣٢٨ - المقال عيسى اسكندر المعلوف - ص: ٤٥٢.

(٢) كنوز الأجداد - محمد كرد علي - ١٢.

(٣) المصدر السابق - ١ (بتصرف).

(٤) مجلة الهلال - مجلد ٢٨ - الجزء ٥ - بتاريخ ١١/٦/١٣٢٨ - ص: ٤٥١.

(٥) كنوز الأجداد - محمد كرد علي - ١٥.

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي - المجلد ١ - الجزء ١٠ - بتاريخ ٢١/٤/١٣٣٩ - ص: ١٩ - مقال: محمد كرد علي.

ولشدة شغف الشيخ بتحصيل العلم فقد كتب عنه طلابه بأنه لم يتزوج، بحجة ألا يشغل ذهنه بزواج وأولاد، وليكون أبداً مطلق العنان يسيح في الأرض متى أراد^(١)، مع علمه أن لا رهبانية في الإسلام، وكذلك إرضاءً لوالدته^(٢) ولعلمه أن للزوجة حقوقاً شرعية يجب أداؤها واستغرق أوقاته في العلم والسياحة^(٣).

ولم يكن الشيخ قد تجاوز الثانية والعشرين من سني حياته يوم تولى أولى وظائفه في الدولة، حين عُيِّن معلماً في المدرسة الظاهرية الابتدائية بدمشق سنة ١٢٩٤هـ^(٤).

ويبين منهج الشيخ طاهر في دعوة الناس، ما ذكره طلابه عنه، بأنه لم يحد عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ نعومة أظفاره، ودعا الناس إلى انتهاجها حتى آخر أيامه، وخطته الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة عن طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام، وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار، والسلامة محققة ثابتة، وكان يبذل جهده لتعم دعوته أهل الحضر والبادية، والأغنياء والفقراء^(٥).

(١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٨.

(٢) مجلة المقتطف-الجزء الرابع-المجلد ٢٦ بتاريخ ١٢/٧/١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠-ص:٣٠٣.

(٣) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-١٣٧.

(٤) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٩٤.

(٥) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٤.

وتفصيلاً لهذا المنهج فقد عقد الشيخ صلوات مستديمة مع علماء عصره.. ومنهم صديقه العالم المجري غولد صهير اليهودي^(١)، الذي ترجم إلى الألمانية كتاب (توجيه النظر إلى علم الأثر) لأستاذه طاهر الجزائري، وقد أرسل غولد صهير إلى طاهر الجزائري هذه الرسالة: سلام على صاحب الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، من هو المرجع للأمثال والأفاضل، الحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواضل، العالم العلامة الشيخ طاهر.. أرجو أن لا ينمحي من قلبكم خيال صاحبكم المجري الذي كان يستجير بشامكم في سنة ١٢٩٠هـ مقتبساً من أنوار علمائها،.. وصاحبكم يوماً فيوماً مستأنساً بمجاورتكم ومذاكرتكم، وكنا إذ ذاك في عنفوان شبابنا متبحرين في العلوم الشريفة، مستغرقين في بحور الآداب الظريفة.. حرر في ٥ ذي الحجة سنة ١٣١٧هـ (٥/٤/١٩٠٠م)^(٢).

ويرر طلاب الشيخ طاهر علاقةً الشيخ بالمستشرقين بأنها باعثة على تخفيف حملاتهم على الإسلام ولو قليلاً، وهذا مما كان يهتم له، ثم يهمله من أمر المستعربين من المستشرقين توفرهم على خدمة آدابنا، بنشر كتبنا النفيسة، وكان يعاونهم فيما هم بسبيله إذا استرشدوه، ويفتيهم راضياً مختاراً إذا استفتوه، فيما يتعذر وقوفهم عليه^(٣).

(١) إجناس كولسد صهر ويلفظ بالألمانية جو لدتسيهر، مستشرق يهودي مجري، ولد بألمانيا سنة ١٢٦٦هـ -رحل إلى سورية سنة ١٢٨٩هـ وتنقل في البلاد الإسلامية ولازمه مجموعة من القوميين، فتن طائفة كبيرة من المسلمين بأفكاره نحو السنة النبوية والفقهاء الإسلاميين. توفي سنة ١٣٤٠هـ بألمانيا. انظر: (المعاصرون-محمد كرد علي-١٣٢).

(٢) مجلة الأزهر-مجلد ٢٥-محرم ١٣٧٣-الجزء الثاني: ص: ١٧٣-١٧٤.

(٣) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٨.

وقد صنف الشيخ طاهر كتاباً في العقيدة، على طريقة السؤال والجواب، ويمكن أن تُستخلص من الكتاب عقيدته، فمما قال: مذهب السلف أرجح لأنه أسلم وأحكم، وأما مذهب الخلف فإنما يسوغ الأخذ به عند الضرورة..^(١).

وبين معتقده من صفات الله سبحانه وتعالى، بقوله عن صفة الاستواء: المراد بالاستواء: استواء يليق بجلال الرحمن جل وعلا، فالاستواء معلوم والكيف مجهول، واستواؤه على العرش ليس كاستواء الإنسان على السفينة أو ظهر الدابة أو السرير مثلاً، فمن تصور مثل ذلك فهو ممن غلب عليه الوهم لأنه شبه الخالق بالمخلوقات مع أنه قد ثبت في العقل والنقل أنه ليس كمثل شيء، فكما أن ذاته لا تشابه ذات شيء من المخلوقات كذلك لا ينسب إليه سبحانه ما يشابه شيئاً مما ينسب إليها^(٢).

وبنفس المعتقد فسر العين واليد.. الخ من الصفات ثم قال: ينسب هذا المعنى إلى جمهور السلف، وأما الخلف فأكثرهم يفسرون الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة أو القدرة، والأعين بالحفظ والرعاية، وذلك لتوهم كثير منهم أنها إن لم تؤول وتصرف عن ظاهرها أوهمت التشبيه^(٣).

ثم بين معتقده في الكتب السماوية، ومما قال عن الإنجيل: إن الإنجيل المتداول الآن له أربع نسخ ألفها أربعة؛ بعضهم لم ير المسيح عليه السلام أصلاً،

(١) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية-الجزائري-٢٧-دار ابن حزم-بيروت-الطبعة الأولى-١٤٠٧هـ.

(٢) المصدر السابق-٢٣.

(٣) الجواهر الكلامية في إيضاح العقيدة الإسلامية-الجزائري-٢٥.

وهم متى ومرقص ولوقا ويوحنا؛ وإنجيل كل واحد من هؤلاء مناقض للآخر في كثير من المطالب..

وقال عن القرآن: أشرف كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على أشرف أنبيائه محمد، وهو آخر الكتب الإلهية نزولاً، وهو ناسخ لجميع الكتب قبله وحكمه باق إلى يوم القيامة^(١).

وعن ختم الرسالة بنينا محمد قال: إن حكم إرسال الأنبياء لدعوة الخلق إلى عبادة الحق، وإرشادهم إلى طريق السداد في أمور المعاش والمعاد، وإعلامهم بالأمور الغائبة عن أبصارهم، والأحوال التي لا يصلون إليها بأفكارهم، وتقرير الأدلة القاطعة، وإزالة الشبه الباطلة، وقد تكفلت شريعته الغراء ببيان جميع هذه الأشياء على وجه لا يتصور أبلغ منه في الكمال، بحيث توافق جميع الأمم في جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال، فلا حاجة للخلق إلى نبي بعده، لأن الكمال قد بلغ حدّه^(٢).

وبهذا الإيضاح يتبين أن معتقد الجزائري فيما ذكره، موافق لعقيدة أهل السنة والجماعة، وإنما الأخذ بمنهج الخلف فهو مرفوض عند السلف، ولا يسوغ الأخذ به لا عند الضرورة ولا غيرها؛ إذ أن طريقة السلف في بيان العقيدة هي طريقة الأنبياء والمرسلين، ولا يجوز العدول عنها إلى غيرها، فقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنِّ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(١) المصدر السابق-٣٦.

(٢) المصدر السابق-٥٢.

(٣) سورة الأنعام-آية (٩٠).

وقد قال ابن تيمية: (كيف يجوز على الله تعالى، ثم على رسوله ﷺ، ثم على خير الأمة: أنهم يتكلمون دائماً بما هو؛ إما نص، وإما ظاهر في خلاف الحق، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا ييوجون به قط، ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً، حتى يجيء أنباط الفرس والروم، وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة، التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها)^(١).

ب — أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية:

بدأت مساعي الشيخ طاهر الجزائري، في نشر المعارف والعلوم، بعد أن عُيِّن مدحت باشا والياً على ولاية سورية في سنة ١٨٧٩ (١٢٩٦ هـ)^(٢)، فأسس الجمعية الخيرية^(٣)، التي كان الاعتماد عليها في تأسيس المدارس، فلم تُسر

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية-١٦/٥.

(٢) انظر: الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-١٠٣.

(٣) جمعية المقاصد الخيرية: تأسست سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٩٨، وهي جمعية إصلاحية أسست في دمشق، أيام ولاية مدحت باشا، وقد عقد عزم (بهاء بك) مكتوبي أمين سر-ولاية سورية، بمفاوضة الشيخ طاهر، على السعي لدى مدحت باشا، لإنشاء جمعية باسم (الجمعية الخيرية) ينضم إلى أعضائها معظم الوجهاء والعلماء المشهورين بحبهم للمشاريع المفيدة. فسعت هذه الجمعية سعياً صادقاً في تأسيس المدارس للذكور والإناث وفي مقدمة الساعين الجزائري الذي تقان في خدمة وطنه. وكان هدفها أديباً اجتماعياً في الظاهر، وسياسياً في الباطن لإعادة العمل بالدستور المعطل، وجعل الحكم شورياً، وكان اعتماد أنشطة الجمعية على ما يجمع من الموسرين في بلاد الشام. وكان رجالها على اتصال بجمعية تركية الفتاة، وقد اندمجت الجمعية الخيرية في المعارف. ويقول أعضاء الجمعيات: الجمعية الخيرية كانت مؤلفة في الظاهر من علماء دمشق وأعيانها. ومن أبرز المؤسسين: طاهر الجزائري، ورفيق العظم، وسليم البخاري، وجمال القاسمي، ومحمد كرد علي.. وغيرهم. انظر عن جمعية المقاصد الخيرية: عصر الانبعاث-محمد أسعد طلس-٥٣. والعرب والترك-توفيق برو-٣٥. والشيخ طاهر الجزائري-عدنان الخطيب-١٠٥. ومجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١١/٦-١٣٢٨-ص: ٤٥٢. ومجلة المقتطف-المجلد ٢٦-الجزء ٤-١٢/٧-١٣٣٨-ص: ٢٩٨.

خطة الجمعية الخيرية بنشر العلم على الأساليب الحكومية، وإنما تجمع المال من الموسرين وتنفقها في مشاريعها.

وقد قال الشيخ طاهر، عن منهج الجمعية: جرت منذ أسبوعين مذاكرة سرية في طريقة ترجمة إحدى دوائر المعارف الفرنسية، فإنّ الناس في احتياج لذلك... وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الأمر في يد الحكومة، فطلبنا أن يُكتم ذلك عنها، فإنه لا يؤمل أن تُقدّر عليه، فإن هذا الأمر يحتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة^(١).

ومن خلال دراسة سيرة الشيخ طاهر الجزائري العلمية والعملية يلاحظُ الباحثُ أن دور الشيخ طاهر الجزائري في تأسيس الجمعيات القومية العربية ينقسم إلى قسمين، القسم الأول: دوره في نشر العلوم والمعارف العامة، والقسم الثاني: دوره في تأسيس الجمعيات القومية، ونشر الفكر القومي.

القسم الأول:

أولاً: تولى التعليم لأول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية، ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤هـ دخل في عداد أعضائها وكان من أكبر العاملين فيها، ثم استحالَت هذه الجمعية (ديوان معارف) فَعُين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية التي أنشئت على عهد مدحت

(١) (طاهر الجزائري) رائد النهضة العلمية-عدنان الخطيب-١٦١. وانظر: كنوز الأجداد-كرد علي-٣٩.

باشا والي سورية سنة ١٢٩٥هـ^(١)، وتولى الشيخ طاهر هذه الوظيفة منذ سنة ١٣١٦هـ فأقام على هذا التفتيش أربع سنوات سعى فيها سعياً مشكوراً في ترقيةها^(٢).

ثانياً: أنشأ بمعاونة بضعة أصدقاء له (دار الكتب الظاهرية) بدمشق وجمع فيها سنة ١٢٩٦هـ ما تفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر بيبرس.. وأنشأ مثلها (المكتبة الخالدية)^(٣) في القدس نسبة للشيخ راغب الخالدي، وغيرها من مكاتب سورية وفلسطين، وعمل برامج لها وطبعها لتعميم فائدتها وتحويلها إلى مكاتب عامة^(٤).

ثالثاً: إنه مؤسس لكل المدارس الأميرية في سورية ولبنان وفلسطين زمن ولاية مدحت باشا، وولاية حمدي باشا الذي جاء بعده. وقد تمكن بدهائه أن يجعل العربية لغة التعليم إلى أن غلب على أمره وكُفّت يده وجُعل التعليم فيها بالتركية^(٥).

رابعاً: يقول أعضاء الجمعيات القومية: إن الشيخ طاهر الجزائري عمل بنبوغ وعبقورية على تأسيس المدارس تحت غطاء الجمعية الخيرية، ومعاونة

(١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١١ (بتصرف) وانظر: ١-مجلة المجمع العلمي العربي-المجلد ١-الجزء ١٠-٢١/٣/١٣٣٩-ص: ١٧. ٢-مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١١/١١-١٣٢٨-ص: ٤٥٢.

(٢) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١١/٦/١٣٢٨هـ:المقال عيسى اسكندر المعلوف-ص: ٤٥٢.

(٣) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١١ (بتصرف)

(٤) مجلة الهلال-مجلد ٢٨-الجزء ٥-١١/٦/١٣٢٨هـ-ص: ٤٥٢.

(٥) الشيخ طاهر رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٤٢.

مدحت باشا، ثم وضع البرامج، وتأليف الكتب اللازمة، وحمل الآباء على تعليم أولادهم، فقد فتح أبواب تسع مدارس للذكور جمعت في حلقاتها نحو ثمانمائة طالب، ومدرستين للإناث جمعتا نحو مائة طالبة، وكان منهج تعليمهم جميعاً حديث الأسلوب، غزير الفائدة، وأسس مطبعة لطبع الكتب المدرسية باسم الجمعية^(١).

خامساً: تأليف الكتب الدراسية، قال تلاميذه: (بذل جهد المستطاع في إصلاح الكتابات الابتدائية والمدارس.. وصنف كثيراً من الرسائل الناجعة للمبتدئين، المختلفة باختلاف طبقاتهم على أسلوب مُبتكر لم يكن معهوداً في ذلك الوقت^(٢)) ومنها:

١. الجواهر الكلامية في العقيدة الإسلامية على طريقة السؤال والجواب.
٢. التقريب إلى أصول التعريب.
٣. توجيه النظر إلى علم الأثر.
٤. منية الأذكياء في قصص الأنبياء، عربه عن التركية.
٥. الفوائد الجسماء في معرفة خواص الأجسام، وهو في الحكمة الطبيعية.
٦. مدخل الطلاب إلى فن الحساب.

(١) مجلة الهلال - مجلد ٢٨ - الجزء ٥ - ١١/٦/١٣٢٨ هـ - ص: ٤٥٢. وانظر: كنوز الأجداد - كرد علي - ١١.

(٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر - محمد سعيد الباني - ١٥ - الحكومة العربية السورية - ١٣٣٩ (١٩٢٠).

٧. إرشاد الألباء إلى طريق تعليم ألف باء: كتاب ضمنه الشيخ مباحث لغوية عن حروف الهجاء، وترتيبها ورسمها^(١).

القسم الثاني:

سبق بيان دور الشيخ طاهر الجزائري في المجالات العلمية، وأما عن دوره في تأسيس الجمعيات القومية، فقد يلاحظ أن أعضاء الجمعيات القومية تمكنوا من احتواء الشيخ طاهر الجزائري، والالتفاف حوله، وذلك للأسباب التالية:

١ — العلاقة الوثيقة بين الشيخ طاهر وبين مدحت باشا، الذي يعتبره أعضاء الجمعيات القومية المصلح، وأبا الأحرار، ولهذا لم تظهر مكانة الشيخ طاهر عند أعضاء الجمعيات القومية، إلا بعد وجود هذه العلاقة^(٢).

يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: عندما كان مدحت باشا والياً على الشام، برز في دمشق رجل نابغة في علمه وتفكيره، ونشاطه وإخلاصه، وهو الشيخ طاهر الجزائري^(٣).

٢ — اطلاع الشيخ طاهر — كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية — على العلوم العصرية، مع تضلعه بالعلوم الشرعية، ووقوفه على أحوال الأمم السائرة القديمة والحديثة، وإطلاعه على كل ما يُترجم عن مدينة الغرب

(١) مجلة الهلال - مجلد ٢٨ - الجزء ٥ - ١١/٦/١٣٢٨ هـ - ص: ٤٥٢. وانظر: هداية العارفين - البغدادي - ٤٣٢/١. ومعجم المطبوعات - ٦٨٩/١ والإعلام - الزركلي - ٢٢٢.

(٢) انظر: الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام - عدنان الخطيب - ١٠٣. والمعاصرون - محمد كرد علي - ٢٦٩.

(٣) القومية العربية - مصطفى الشهابي - ٥٠.

وسياسته واجتماعياته، واحتكاكه بعلمائه المستشرقين، وتبادله الاستفادة بينه وبينهم، حيث كان يقتبس منهم ما ينفع المسلمين، ويقبسهم ما يثبت سماحة الإسلام ومدنيته ومجد المسلمين وتمدهم.

كما أن كثيراً من علماء المشرقيات — المستشرقين — في الغرب كانوا يستفتونه فيما يتعلق بعلوم الشرق، وكان بينه وبينهم صداقة يرأسلهم ويراسلونهم على اختلاف قومياتهم، وكلهم من المعجبين به المغتبطين بصداقته ومراسلته، وقد زار بعضهم في بعض رحلاته، وزاره كثير منهم أثناء رحلاتهم إلى الشرق^(١).

ومن أبرز دعوات الشيخ طاهر — كما يقول طلابه — الأخذ بالنافع من التمدن الحديث مادياً كان أو أدبياً، ونبذ الضار منه، ويدعو إلى التجدد واقتطاف ما يصلح وما أነع ثمره من كل جديد، ويدعو إلى الارتقاء الفكري بدراسة العلوم الاجتماعية والمدنية والسياسية، ويدعو إلى تعلم لغات الأمم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة لا للزهو والتفرنج والاندماج الأجنبي وتقليده على العمياء، ويدعو إلى الوطنية والإنسانية على شرط أن لا يتجر بهما خشية انقلاب القضية إلى أثره وأنانية^(٢).

(١) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٤٦-٥٠. وذكر منهم: كولير المجري الأخصائي في الملل والمحل، وهرتن الألماني أستاذ ألسنة الشرق بجامعة (بن) في المانيا، ومرغليوس وبروان الإنكليزيين، وكايرمونكلو الفرنسي من كبار علماء الآثار.

(٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٦٥. وانظر: كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٢٨.

وقد أرسل الشيخ طاهر رسالة إلى أحد تلاميذه، قال فيها: وصلني كتابكم الكريم، منبئاً بعودكم من بلاد أوربا، فسررت بذلك سروراً شديداً، كنت أتمنى لكم هذه الرحلة من قديم، لما أتقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك، فإن الاقتباس من الأمم المتقدمة دليل على النباهة^(١).

إن اطلاع الشيخ طاهر على العلوم العصرية، والأبحاث الغربية، كان من أبرز أسباب التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حوله، قال أحدهم: ويشهد الله أن من أعظم العوامل تأثيراً في مروق بعض خريجي المدارس العصرية وتخلصهم من الدين هو جمود أمثال هؤلاء المعلمين السطحيين.. ولو قيض الله لناشئة المسلمين أساتذة مثل الشيخ طاهر، لما خسروا دينهم وعرضوا بكيانهم القومي إلى خطر الانقراض والاندماج بهوية غيرهم من الشعوب^(٢).

ويأتي هذا السبب في عصر أصبحت فيه البلاد الإسلامية مأوى للمعتقدات النصرانية، والحملات الإستشراقية، والصراع المحتدم بين الدول الصناعية والانفجار العلمي، وانبهار أكثر المتعلمين في ذلك العصر بالعلم الحديث، ويقابل ذلك وجود خواء فكري يعيشه العالم الإسلامي، وجمود في أكثر مجالات الحياة، وإغلاق باب الاجتهاد مع وجود دواعيه^(٣).

(١) كنوز الأجداد- كرد علي- ٣٤. وانظر: (طاهر الجزائري) رائد النهضة العلمية- عدنان الخطيب- ١٦١.

(٢) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر- محمد سعيد الباني- ٤٦-٥٠. وانظر:

* القومية العربية- مصطفى الشهابي- ٥٠.

(٣) انظر: واقعنا المعاصر- محمد قطب- ١٥٨ و٣٠١.

ولهذا أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية أن أبرز مناقب الشيخ طاهر نسيبُ التعصب؛ وسعيه في حل قيود التقليد الأعمى وحربه للتعصب الذميمة^(١) ونقدهُ للحمود، حتى قال معاصروه: كان كثير الحديث عن علماء دمشق وأعيانها، وكثير الإسهاب فيما كان عليه معاصروه^(٢).

٣ - الطعن في سياسة الأتراك للبلاد العربية، ومطالبته بالإصلاح، فقد وصفه طلابه ومعاصروه بأنه كان يعرف السياسة وما ينبغي لها وحالة الغرب واجتماعه، والشرق وأمه وأمراضه معرفة اختصاصي^(٣)، وقد صرف دقائق عمره لإنهاض الأمة باتباع طريق العلم والتهديب^(٤).

ومن أمثلة طعن الشيخ طاهر بسياسة الأتراك اعتباره الأتراك مستعمرين للبلاد العربية، فقد قال: (إن استيلاء الترك على أرض العرب أضرب بها وأزال مدينتها وغير أخلاقها)^(٥). وتأكيداً على نقمة الشيخ طاهر على الحكم التركي، فقد قال طلابه: هجر دمشق إلى القاهرة سنة ١٣٢٥هـ - (١٩٠٧) فراراً من ظلم العهد الحميدي وظلامه^(٦).

(١) مجلة المجمع العلمي العربي - المجلد ١ - الجزء ١٠ - ٢١/٤/١٣٣٩هـ ص: ١٧.

(٢) مجلة المنار - مجلد ٢٢ - الجزء ٨ - ٢٩/١٢/١٣٣٩ الموافق ١٩٢١ - ص: ٦٣٨.

(٣) كنوز الأجداد - محمد كرد علي - ١٢.

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي - المجلد ١ - الجزء ١٠ - ٢١/٤/١٣٣٩هـ ص: ١٧.

(٥) كنوز الأجداد - محمد كرد علي - ٢٨.

(٦) مجلة المجمع العلمي العربي - المجلد الأول - الجزء ١٠ - ٢١/٤/١٣٣٩ الموافق ١٩٢١. ص: ١٨.
يذكر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية سبب انتقال الشيخ طاهر إلى مصر، بأنه لقي من الحكومة الحميدية ما كان يلقاه كل حر من الإرهاب، وقد ضبقت الحكومة منزله وختمت حجرته في مدرسة عبدالله باشا العظم، وهي مملأ بالكتب والأوراق القديمة، فاستاء من هذه المعاملة وأزمع السفر إلى القطر المصري تفادياً لمثل هذه المصادمات .. فسافر سنة ١٣٢٤هـ -

ودام لجوء الشيخ طاهر في القاهرة فترة ما بين سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧) إلى سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠)، وظل فيها طول هذه المدة.. ولما نشر القانون الأساسي في المملكة العثمانية (١٩٠٨) رأى الشيخ بنظره الثاقب أن عهد الحرية الحقيقية بعيد، وكان لا يغتر بقوانين الترك ولا بشرثرة السياسيين، فانزوى في مصر^(١).

ولما أعلنت الثورة العربية في الحجاز، أبدى الشيخ طاهر ابتهاجه بها، وتمنى لها النجاح في تحقيق الأمان العربية، وعندما بلغه خبر دخول الجيش العربي دمشق وإعلان الحكم العربي فيها سنة ١٩١٨ (١٣٣٦هـ) استراحت نفسه وبدا عليه السرور^(٢).

٤ — انفتاح الشيخ طاهر على جميع معتقدي المذاهب والملل، فمن عادة الشيخ كما يقول أعضاء الجمعيات القومية من تلامذته على سبيل الإعجاب والتقدير: إن الشيخ يصحب الفرق المختلفة، مهما كان لون طريقتهم ونحلثهم، حتى الملاحدة وأرباب الطرق، ولقد كانت له صداقة أكيدة بالمطران يوسف داود السرياني^(٣) — رئيس أساقفة دمشق للسريان — ، يتسامران، ويتحدثان،

= (١٩٠٥) ناقلاً معه معظم مكتبته الثمينة، قاصداً القطر المصري فرحب به علماءها وكرموا مثواه، ووجد من رجال النهضة المصرية قلباً أجمع على حبه وأعجبت بمواهبه وأخلاقه. انظر: مجلة المقسطف - الجزء الرابع - المجلد ٢٦ بتاريخ ١٢/٧/١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠ - ص: ٣٠٤. ومجلة الهلال - مجلد ٢٨ - الجزء ٥ - ١١/٦/١٣٢٨ - الموافق ١٩٢٠ - ص: ٤٥٢.

(١) كنوز الأجداد - محمد كرد علي - ١٨.

(٢) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام - عدنان الخطيب - ٨٦.

(٣) يوسف داود بن بهنام الملقب (بأقلميس) ولد عام ١٢٤٥هـ في الموصل، ومات في دمشق عام ١٣٠٧هـ - سرياني الأصل مستعرب، انتخب مطرانا للكاثوليك السريان. انظر (الإعلام - الزركلي - ٢٣٠/٨).

ويتناقشان، ويثني الثناء المستطاب على صديقه المطران، وقد طالت به صحبته وعشرته.

وهكذا كان له اتصال بالأرمن واليهود، واليسوعيين الكاثوليك، والأمريكان البروتستانت، وكان يغضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين، ويقول: هم أقرب الناس إلينا، يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس، وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته، على ما بينها وبينه من التخالف.. ويطلعونه من سرائرهم على ما لا يبوحون به لأقرب الناس إليهم، وكان يقول عن هذا المنهج: الحمد لله لقد سالمنا كل الفرق^(١).

٥ — تأييد الشيخ طاهر الجزائري الحكومة البريطانية في الحرب ضد الدولة العثمانية، فقد أرسل رسالة إلى صديقه المستشرق (المس بل) أمينة سر حاكم العراق جاء فيها: لما كنت أعتقد أن أحسن من يُخلصُ العربُ له الود هو دولة بريطانيا العظمى، لما خبرته من الأحوال، ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك، والمودة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين، اقتضى الأمر أن يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الأمر، فرأيت أنه ينبغي لإنكلترا العظمى أن تعني بأمور:

أ — أن تؤسس في كل بلدة كبيرة ديواناً شبيهاً بالرسمي، لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يحبه العرب، لتساعد عليه بقدر الإمكان، والذين يُعيّنون ينبغي أن يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب، ممن تلقوا ذلك مثل حضرتك الكريمة.

(١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٩. وقال تلميذه محمد كرد علي: وما أدري إن كان المطران أثر في الشيخ، أو الشيخ أثر في المطران.

ب — أن تعني بأمر اللغة العربية، ويظهر منها السعي في نشرها على غرار ما يظهر منها ذلك في حق اللغة الإنكليزية.

ج — الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم، على وجه يساعد عليه الحال والزمان.

د — مراعاة عوائدهم وعدم الخط من كرامتهم، لاختلاف العادات، فقد بلغني وقوع تسلط من بعض المأمورين في البصرة والعراق وغيرهما، وهذا مضر جداً لا يُشعر بمضرتة إلا بعد أن يشتد الحال، وَيَعْسُرُ زوال ما في النفس، نَعَمَ إن هذا الأمر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي، إلا أن الاعتناء به كثيراً ممكن، والعربي أهم شيء عنده عدم الهوان.

وإني أرى أن هذه الأمور إذا تمت هكذا، تكون النتيجة حسنة جداً ويشد التلاؤم بين الفريقين، فإن العرب أقرب الناس إلى شكر النعمة، فإن وجد من لا يشكر، فإن في ظهور النعمة ما يقمعه عن إبراز ما ينويه من مغالطة الناس.

وقد ختم الشيخ طاهر الرسالة بقوله: المخلص للأمة العربية والدولة البريطانية العظمى / طاهر الجزائري^(١).

وبيّن الشيخ طاهر المحظور من إبداء العطف والموالاتة للحكومة البريطانية، فقال: (الناس الذين على فكري — من جهة توافق مصلحة الأمة العربية مع

(١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٤٥-٤٨. وانظر: (طاهر الجزائري) -عدنان الخطيب-١٦٧-١٧٠. وانظر صورة الرسالة في كنوز الأجداد.

مصلحة الدولة البريطانية العظمى — كثيرون إلا أنهم لا يقدرّون على إظهار فكرهم إلا بعد أن يروا باعثاً على إظهاره، لئلا ينسب إليهم أنهم خائنون للأمة، فإن هذه الجملة روّعت الناس كثيراً؛ وهي جملة اتخذها الشرقي لإرهاب غيره، سواء كان هو مخلصاً في نفسه أم غير مخلص.. وإني أوصيكم ببعض البلاد التي لا أسمىها، فإن فيها كثيراً من الرجال المهمين، الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها، ولكنهم غلبوا على أمرهم، لأنهم لم يُعرفوا في وقت الرخاء، حتى يُنتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة، والبحث يجلو كل شيء، فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل، وقد آن الأوان لمعرفةهم، وهذا لا يكون إلا تدريجاً، فليبادر إلى ذلك^(١).

٦ — دعوة الشيخ طاهر لتأسيس الصحف والمجلات ذات الصفة السياسية والأدبية، فكم من جريدة أو مجلة أو كتاب أو رسالة نشرت في مصر والشام بإرشاده^(٢) ويقول أعضاء الجمعيات القومية: كان ينشط الأكفاء على إنشاء الصحف السياسية والاجتماعية، والمجلات العلمية والأدبية، فكم من مجلة أو جريدة أنشئت في القطر السوري أو المصري بتنشيطه ومؤازرته، ويدعو المستبصرين إلى التبصر بالصحف النافعة والمجلات المفيدة ويتهج بها. وكان له شغف بالاطلاع عليها وتتبعها خصوصاً التي تكثر من الترجمة عن الغرب

• قال محمد كرد علي: يقصد بالبلاد: الغالب أنه يقصد الديار الشامية.

(١) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٤٥-٤٨. وانظر: (طاهر الجزائري) -عدنان الخطيب-١٦٧-١٧٠.

(٢) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٤.

واقطف ثمرات علومه الياقة... ويرى أن مطالعة مقالة علمية في مجلة أو جريدة أكثر فائدة من كثير من الدروس الحافلة بالمثبات^(١).

والأسباب سالفة الذكر كانت من أبرز دواعي التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ طاهر الجزائري في المدة التي قضاها بالشام، في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر، والسنوات الخمس الأولى من القرن العشرين^(٢)، حيث ألتف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ حلقات متعددة منفصلة مترابطة، تجتمع إحداها بالشيخ بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، وتجتمع الثانية به في يوم آخر من أيام الأسبوع، بينما تجتمع الثالثة في مواعيد يحددها لهم.

وكانت للشيخ مع كثير من هؤلاء الشباب ومع غيرهم من شباب دمشق المتعلم سهرات ليلية متواصلة، يتنقل فيها معهم بين مختلف أحياء المدينة، وهو يتخير المنازل التي يكثر زائروها من النبهاء والمتقفين حتى إذا ما تجمعوا أخذ يستعرض أمامهم كل ما يقدر أنه يهمهم الاستماع إليه عن الحركات العلمية والفكرية والسياسية في خلال الأسبوع الذي اجتمعوا في نهايته^(٣)، وكان أعضاء الجمعيات القومية يصغون في انتباه وتواضع إلى ما كان يدور فيها من أحاديث ومحاورات في اللغة العربية وقواعدها وآدابها وفي الجهل الضارب أطنا به بالبلاد

(١) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٦٢

(٢) القومية العربية-الشهابي-٥١.

(٣) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية -عدنان الخطيب-٢٤. وانظر: مذكرات محب الدين الخطيب.

العربية، وفي الوسائل التي يجب التوسل بها لرفع مستوى التفكير والتعليم جميعاً^(١).

ويضيف أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن الحلقات كانت تدعو إلى تعليم العلوم العصرية ومُدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي وآداب اللغة العربية، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية^(٢).

وللعوامل المؤثرة المختلفة في نشر المعتقد القومي في البلاد العربية، فقد ظهرت آثاره على أعضاء حلقة الشيخ طاهر الجزائري، مما نتج عنه ظهور نزعة قومية عربية فيهم، وتأسيس حلقة سياسية سرية سميت بحلقة دمشق الصغيرة، انتقل كثير من أعضائها إلى استنبول^(٣)، فراحوا يفكرون ويتناقشون في الخفاء فيما كان للعرب من أوضاع سيئة في دولة تنكر للغةهم ولقوميتهم.

كان الهدف الظاهر لهؤلاء الشبان في حلقتهم مُدارسة تاريخ العرب وقواعد اللغة العربية وآدابها، أما هدفهم الخفي فقد كان بعث العروبة من رقادها بتلقي شباب العرب الوسائل المؤدية إلى هذا البعث^(٤).

ويصف أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية بعض ما يدار في الحلقة السرية، من موضوعات، فيقول: كان الشبان الناهضون يتحدثون عن أوروبا

(١) القومية العربية-الشهابي-٥٢-٥٣.

(٢) المصدر السابق-٥١.

(٣) الحكومة العربية الأولى في دمشق-خيرية قاسمية-١٥.

(٤) القومية العربية-الشهابي-٥٢-٥٣.

وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة، واستبداد السلطان عبدالحميد، وسرد حكايات طويلة عن إغراق الأحرار في بحر مرمرة، وتعذيب الألوف من الشبان المطالبين بالإصلاح... كانت هذه الأحاديث تذكر في مجالس الشبان وكان يحضر هذه المجالس شيخ الأحرار الشيخ طاهر، وله أكبر فضل في تنوير الأبصار والبصائر، ودفع العرب في طريق التقدم^(١).

وبعد بيان التفاف أعضاء الجمعيات القومية العربية حول الشيخ طاهر الجزائري، أنقل بعض النصوص التي ذكرها أولئك الأعضاء، والتي تؤكد مدى تأثير الشيخ طاهر فيهم، يقول أحدهم: كان له تأثير عظيم في تلاميذه وإليه يرجع الفضل في ظهور كثير من أدبائنا الأفاضل فهو الذي ربي فيهم روح الإقدام والشجاعة الأدبية.. وكان من أقواله وتوجيهاته: إن العواطف الوطنية والدينية بطريق الشعريات لها شأن عظيم في استماله الرأي العام^(٢).

وقرر تلاميذه بأن عدداً ممن اشتغلوا بالآداب أو تعلموا التعليم الثانوي أو العالي في الديار الشامية إن لم يكونوا استفادوا منه مباشرة فبالواسطة؛ وتلاميذه ومريدوه من المسلمين يعدون بالعشرات وأكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم وفي التجارة والزراعة^(٣) ولهذا يسوغ أن نعتبر أن أغلب

(١) مذكرات البارودي-فخري البارودي: ٥٨/١.

(٢) مجلة المقتطف-الجزء الثاني- المجلد ٢٦ سنة بتاريخ ١١/٥/١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠ -ص: ١٦٤.

(٣) كنوز الأجداد-محمد كرد علي- ١٤.

المعلمين والمتأديين من الباحثين والكتاب في القطر السوري عالمةً عليه وإن لم يتلقوا منه مباشرة^(١).

ويقول فخري البارودي في مذكراته: إذا كان من فضل لأحد علي في توجهي من الناحية الوطنية فهو أولاً الشيخ طاهر الجزائري المغربي أستاذنا وإلى تلامذته الأحرار^(٢).

ويقول أحدهم أيضاً: من هذا الغريب الصابر الدائب الحكيم، الشيخ طاهر الجزائري عرفت عروبي وإسلامي^(٣).

وقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية الشيخ طاهراً من أركان النهضة العربية الحديثة الذين عملوا لرقبها عمل من طب لمن حب^(٤). كما عدوا الشيخ في عظماء أركان النهضة العلمية، والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصاً دمشق^(٥) ونشأ على يديه جيل من أفذاذ الرجال الذين تعزز بهم الشام كما يفخر العرب والمسلمون بجهادهم وسيرتهم^(٦).

علاقة الشيخ طاهر بجمعية تركيا الفتاة:

سبق الحديث عن اتفاق أعضاء جمعية تركيا الفتاة مع جميع القوميات على نقد سياسة السلطان عبدالحميد، وسعيهم للمطالبة بالحكم الدستوري، ولهذا

(١) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٧٣.

(٢) مذكرات البارودي-فخري البارودي-٧٩/١.

(٣) الشيخ طاهر رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٨٧.

(٤) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٢٩.

(٥) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر-محمد سعيد الباني-٧٠.

(٦) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام-عدنان الخطيب-٢٦.

كان الشيخ طاهر مؤثراً على أعضاء جمعية تركيا الفتاة من عرب وترك، حيث كان الشيخ يختلط بمؤلاء وأولئك ويتلمذ جميعهم عليه، وهو لا يشعر أحداً منهم بأنه يتحزب لجمعية من الجمعيات أو ينتمي إليها^(١).

وقد ذكر بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكومة السلطان عبدالحميد قد ألغت وظيفة التفتيش — والتي كان يشغلها الشيخ طاهر — بالمدارس خوفاً من شدته في بث أفكاره بين الأساتيد والتلاميذ، فزاد نشاط الشيخ^(٢) ثم أتمته بالاشتراك في إذاعة نشرات كانت (جمعية تركيا الفتاة) تذيعها للطنن باستبداد السلطان عبدالحميد، فنزح الشيخ إلى مصر^(٣).

وبعد أن أسقط السلطان عبدالحميد، وانفردت جمعية تركيا الفتاة بسياسة الدولة العثمانية، كان للشيخ طاهر الجزائري موقف مماثل موقف أعضاء الجمعيات القومية العربية من أعضاء جمعية تركيا الفتاة.

وهو مواجهه حركة التتريك التي قاموا بها قال الشيخ: وقد نصحت كثيراً من المحدثين من الأحرار (يقصد جمعية تركيا الفتاة) بأن يعدلوا مشربهم، وحذرتهم عواقب الأمر، غلبوا أو غلبوا، فأبوا إلا الإصرار على فكرهم، وما قلت لهم رأبي إلا بعد أن ألحوا عليّ بيانه^(٤). وبعد الإعلان عن تطبيق الدستور،

(١) المصدر السابق-٤٤.

(٢) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-١٦.

(٣) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٠.

(٤) كنوز الأجداد-محمد كرد علي-٣٤.

قال محمد كرد علي عن رأي شيخه وموقفه: كان لا يغتر بقوانين الترك ولا بثرثرة السياسيين^(١).

وكان الشيخ طاهر يرشد أعضاء الجمعيات القومية العربية في خلال هذا الواقع، كما يقول طلابه: بأنه لا يرى أن يُجابه صاحب القوة تفادياً من بطشه بل يحتال عليه لئلا تنسحق القوة القليلة غير المنظمة أمام القوة الكبيرة المنظمة، وأن الأولى بالأمة الضعيفة التي تحاول تحريرها من قيود رقها أن تعد أسباب النهوض من علم وأخلاق ثم تنفض يدها من يد ظالمها.. فهو صاحب ثورة فكرية لا صاحب ثورة دموية^(٢). وكان يقول: "إن سورية تخرج عن حكم العثمانيين في القريب العاجل"^(٣).

وأثناء فترة انتقال الشيخ طاهر إلى مصر كان يحضر اجتماعات الجمعيات القومية العربية، فمن ذلك ما يذكره طلابه عنه: بأنه في سنة ١٣٣١هـ الموافق (١٩١٣م) كان حزب اللامركزية قد دعا الناس إلى اجتماع كبير في فندق الكوتنتنتال في القاهرة، وقد ذهبنا مع الشيخ طاهر الجزائري لحضور ذلك الاجتماع^(٤).

(١) المصدر السابق-١٨.

(٢) مجلة المقتطف-الجزء الرابع-المجلد ٢٦ بتاريخ ١٢/٧/١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠-ص:٣٠٢.

(٣) المصدر السابق-ص:٣٠٠.

(٤) مجلة الزهراء-المجلد ٣-الجزء ٧-١/٧/١٣٤٥هـ -ص:٤٦٤-٤٦٥. مقال: محب الدين الخطيب.

وقد يكون اجتماع حزب اللامركزية المذكور تمهيداً لانعقاد المؤتمر العربي الأول، الذي عُقد في باريس سنة ١٣٣١هـ الموافق ١٩١٣، ومن مقاصده إعلان التمرد العربي على حكم جمعية تركيا الفتاة^(١).

قتل مجموعة من العرب على أثر تصاعد الخلاف بين أعضاء الجمعيات العربية وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي كان منهم سليم بك الجزائري، وهو ابن شقيق الشيخ، الذي له في تهذيبه اليد الطولى^(٢).

ولشدة نعمة الشيخ طاهر على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم يقبل الشيخ طاهر العزاء في ابن أخيه، إلا بعد دخول الجيش العربي والفرنسي بلاد الشام وإعلان الحكم العربي فيها سنة ١٩١٨ فاستراحت نفسه وبدا عليه السرور^(٣).

لقد توفي الشيخ طاهر بعد أن استحكمت منه مرض الربو، فقد قفل راجعاً إلى مسقط رأسه قبيل وفاته بأشهر قليلة، فعينتته الحكومة العربية مديراً عاماً لدار الكتب العربية - التي أسست بسعيه منذ أربعين سنة وقت صباه^(٤) - وعضواً في المجمع العلمي العربي. ومات في ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠) ودفن في دمشق^(٥).

(١) انظر: المؤتمر العربي الأول - محب الدين الخطيب - ٤.

(٢) مجلة الهلال - مجلد ٢٨ - الجزء ٥ - ١١/٦/١٣٢٨: المقال عيسى اسكندر المعلوف - ص: ٤٥١.

(٣) الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام - عدنان الخطيب - ٨٦.

(٤) تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر - محمد سعيد الباني - ١٤٠.

(٥) كنوز الأجداد - محمد كرد علي - ١٨. وانظر: تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر - محمد سعيد الباني - ١٤٠ - ومجلة المقتطف - الجزء الرابع - المجلد ٢٦ - بتاريخ ١٢/٧/١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠ - ص: ٢٩٧.

وقال طلابه: عَظُمَ نعيه في أندية العلم والأدب، واضطرب تلامذته ومريدوه وأحبابه وعارفو فضائله بخطبه الجلل، ويكون ويرثون الذي كان الحركة الدائمة في بث المدنية والعلم الصحيح^(١) وبعد أربعين يوماً من وفاته أقيم حفل لذكر مآثره؛ على عادتهم في بدع الجنائز.

(١) مجلة المجمع العلمي العربي - المجلد ١ - الجزء ١٠ - ٢١ / ٤ / ١٣٣٩ هـ - ص: ١٧. مقال: محمد كرد علي.

المبحث الثاني

شخصيات المرحلة الثانية

تم التعريف في المبحث الأول، بأبرز الشخصيات المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية، وذلك في فترة الالتقاء الثقافي بين الدول الاستعمارية النصرانية والدولة العثمانية. وذلك عن طريق الحملات التنصيرية في أيام الدولة العثمانية.

وفي هذا المبحث سأتناول الشخصيات المؤثرة في تأسيس الجمعيات خلال المرحلة الثانية، التي تبدأ تقريباً من إسقاط السلطان عبدالحميد وتولي جمعية الاتحاد والترقي مقاليد السلطة، وهذه المرحلة التاريخية تعتبر بداية تأسيس الجمعيات القومية العربية.

أولاً: رفيق العظم:

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

هو رفيق بن محمود بن خليل العظم^(١)، ولد في دمشق حوالي سنة ١٢٨٠ هـ^(٢) الموافق (١٨٦٧م) وعاش رفيق العظم في كنف والده في أحد قصور آل العظم بدمشق^(٣).

وكانت نشأة رفيق العظم في وقت نشاط النهضة العلمية التي شهدتها بلاد الشام على يد الشيخ طاهر الجزائري، ولذا اتصل رفيق العظم بطاهر الجزائري وسليم البخاري فأخذ عنهما — كما يقول أعضاء الجمعيات — ما استنار به عقله وأهله للنزول في مضمار الجهاد لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم^(٤).

ويذكر أقرانه: أن رفيق العظم نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء الوجهاء والأعيان المترفين في ذلك العهد ليعدون من أجل خدمة الحكومة. فلم يعن والده بتعليمه في مدارس العلم العربية، التي كانت من تأسيس الجمعية الخيرية؛ درس العظم التعليم الابتدائي في كتاب أهلي، ثم أخذ شيئاً من مبادئ اللغة العربية عن شيوخ عصره، وكان كل ما حصله بعد ذلك بمطالعاته الشخصية^(٥).

ويذكر السبب في عدم انتظام العظم في تعليم المدارس العربية لأنها خاصة برجال الدين، وأما عدم انضمامه لمدارس الحكومة العثمانية الإعدادية والعالية

(١) الإعلام-الزركلي-٣٠/٣. وقال الزركلي: ولد سنة ١٢٨٤هـ.

(٢) وقال رشيد رضا في ترجمته: ولد سنة ١٢٨٢هـ. انظر: مجموعة آثار رفيق العظم-المقدمة.

(٣) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-بتاريخ ١٥/١/١٣٤٤هـ- ص: ٢٢٥-٢٢٦ (بتصرف يسير).

(٤) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٢٤.

(٥) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.

ربما يكون لعدم شعوره بالحاجة إلى تخرجه فيها، أو عدم رغبته بجعله من عمالها وموظفيها، الذين لا تكنهم دار، ولا يقر لهم بين أهلهم قرار، أو فمحض الإهمال.

فعلى هذا يكون رفيق العظم غير متعلم تعليماً منظماً. وإنما أخذ بعض المبادئ عن بعض شيوخ عصره، وكان يعاشر العلماء والأدباء والمتصوفة، ويطالع الكتب ودواوين الشعر لأجل التسلية^(١).

ويصفه معاصروه في بدء نشأته مولعاً بقراءة السير والفتوح، وانتقل منها إلى قراءة الأمهات من كتب التاريخ^(٢) وكان مولعاً بكتب الأدب أيضاً^(٣).

ومع حرص رفيق العظم على العلم ومجالسة العلماء والأخذ منهم، اتصف بأنه ذكي الفؤاد، ميالاً بفطرته إلى العلم والجد ومعالي الأمور، عزوفاً عن سفا سفا وصغائرها. صرفته الفطرة الذكية عن إنفاق أوقات صباه في اللهو واللعب مع أمثاله من أبناء الموسرين، بل جذبته إلى معاشرة أهل العلم والأدب والأفكار في الأمور العامة^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه - (بتصرف)

(٢) مجلة الزهراء - المجلد الثاني - الجزء الأول - بتاريخ ١٥/١/١٣٤٤هـ - ص: ٢٢٥-٢٢٦ (بتصرف يسير).

(٣) الإعلام - الزركلي - ٣/٣٠.

(٤) مجموعة آثار رفيق العظم - رشيد رضا - المقدمة (بتصرف).

هذا رفيق العظم في بلاد الشام، وأما حياته ونشأته في مصر التي هاجر إليها سنة ١٨٩٤م (١٣١١هـ)^(١) — كما يقول أعضاء الجمعيات القومية — بعد أن اشتدت مطاردة عبد الحميد للسياسيين العثمانيين طلاب الدستور.

يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: جاء رفيق العظم إلى مصر مقتنعاً بثلاثة مبادئ إصلاحية:

أ — الرجوع إلى ينابيع الشريعة الإسلامية الصافية.

ب — الأخذ من الحضارة العصرية بأسباب القوة.

ج — أن يكون الحكم في الدول الإسلامية قائماً على أساس النيابة^(٢).

ظهر نشاط رفيق العظم السياسي والاجتماعي في مصر حينما اتصل ببعض أعضاء الجمعيات القومية الساكنين الديار المصرية، وانضم إلى مدرسة محمد عبده وأخذ يختلف إلى مجالس الأستاذ^(٣) ويحضر دروسه التي كان يتناول فيها الكلام على المسائل الفلسفية^(٤).

ومن دلائل نشاطه في مصر واتخاذها دار هجرة ومقامه قولُ رشيد رضا — أحد مؤسسي الجمعيات القومية العربية — عنه: (بعد استقرار رفيق العظم في

(١) المصدر السابق نفسه - (بتصرف) ويقول غيره: كانت هجرته في سنة ١٣١٥هـ. أو في سنة ١٣١٠هـ.

(٢) مجلة الزهراء - المجلد الثاني - الجزء الأول - بتاريخ ١٥/١/١٣٤٤هـ - ص: ٢٢٧.

(٣) مجموعة آثار رفيق العظم - رشيد رضا - المقدمة. (بتصرف)

(٤) الإسلام والتجديد في مصر - تشارلز آدمس - ٢٠٥ - مطبعة الاعتماد - مصر - ١٣٥٣هـ - (١٩٣٥).

مصر، طفق ينشر المقالات السياسية والاجتماعية في أشهر جرائدها اليومية: (الأهرام فالمقطم فالنؤيد فاللواء)، وفي أشهر مجلاتها (كالمقتطف والهلل والمنار والموسوعات)..وقد تم التآلف والتعارف بيننا وبين رفيق، ثم التعاون على الإصلاح السياسي والاجتماعي، فالاشتراك في الأحزاب والجمعيات السرية والجهرية^(١).

ومن أنشطة رفيق العظم في مصر أيام تولي الأشراف على إدارة (المدرسة العثمانية)^(٢) تأليفه كتاب (الدروس الحكيمية للناشئة الإسلامية) لها وهو عبارة عن دروس إصلاحية في الدين والتربية والأخلاق والسياسة، وقد بلغت سبعة وعشرين درساً، وكل درس يفتتحة بعنوانين، الأول: من عنده، والثاني: من القرآن الكريم^(٣).

وقال في مقدمة الكتاب: لا بد من تربية الأفكار الآن على مبادئ الشريعة، بوضع كتب جديدة تبين مزايا الدين الإسلامي للناشئة الإسلامية، من جهة ما يُقَوِّم أودَ النفوس الناشئة عن خلط الاعتقاد الصحيح بالبدع التي أضعفت النفوس من جهة، وأزاغت ضمائر بعض الناشئة عن حقيقة الإسلام من جهة أخرى، لترشد تلك الكتب النشء الإسلامي إلى الدين من طريق العلم والعقل، وإلى العمل من طريق الدين... وقسمتُ هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام: في

(١) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.

(٢) أسسها ابن عم رفيق العظم، صلاح الدين بك العظم. انظر: مجلة الزهراء-المجلد ٢-الجزء ١-ص:

(٣) الدروس الحكيمية-رفيق العظم-٥-جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-١٤٠٩هـ.

الاجتماع؛ مبادئه وروابطه ومقوماته، ليكون أشبه بمراقبة، يرى فيها كيفية تدرج الإنسان في مراقبي الحضارة وال عمران، بما وهبه الله من قوة العقل والإرادة، وأرشدته إليه من طريق السعادة، وجعلت تحت كل قسم منها دروساً، مستمداً فيها مادة البيان من آي القرآن^(١).

تزوج رفيق العظم ولم يرزق ولداً^(٢)، يقول أحد معاصريه: (كان رفيق شديد الولوع بدخان التبغ والقهوة، على شدة تأثيرهما في مرضه الصدري، حتى ضعف جسمه وصار يتعب من الكتابة والمطالعة فاعتزل الناس ولزم داره حتى وافاه أجله في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٣هـ الموافق ٢/٤/١٩٢٥، وتوفي بالقاهرة^(٣)).

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية:

سبقت الإشارة إلى أن رفيق العظم قد تلقى عن طاهر الجزائري ما استنار به عقله وأهله للنزول إلى مضمار الجهاد لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم، و كان سنُّ رفيق العظم عند تأسيس الحركة الإصلاحية التي قام بها طاهر الجزائري الخامسة عشرة من عمره^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه -٧-٨.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم -رشيد رضا- المقدمة.

(٣) المصدر السابق-المقدمة. وانظر: المعاصرون-محمد كرد علي-٢٢٦.

(٤) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-بتاريخ ١٥/١/١٣٤٤هـ - ص: ٢٢٥-٢٢٦ (بتصرف يسير).

كما وافقت مبادئ الدعوة التي قام بها طاهر الجزائري، هوىً في نفس رفيق العظم الذي وصفه معاصروه بأنه كان ميالاً بطبعه إلى السياسة والأمور العامة^(١).

ومن خلال الاطلاع على نشأة الجمعيات القومية العربية يلاحظ أن رفيق العظم كان له دورٌ بارزٌ في تأسيس الجمعيات القومية، سواء أكان الدور في التنظير والتأسيس أم المشورة وإبداء الرأي، وقد قال أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية: (وما تألفت في القاهرة جمعية أو قام فيها عمل ذو بال يتفق مع مبادئه الإصلاحية، إلا كان في مقدمة العاملين لإنجاحه)^(٢).

أول تنظيم حزبي قام به رفيق العظم هو الانضمام إلى جمعية تركيا الفتاة وكان كغيره من أعضاء الجمعيات القومية العربية الذين ناصرُوا جمعية تركيا الفتاة، ثم افترقوا عنها. صحب رفيق العظم بعض أحرار الترك النازلين في بلده فأفاد منهم روحاً جديدةً وتلقح فكره بأراء حرة، ومن أسرها مقاومة الاستبداد والمستبدين والتنبيه على فساد الإدارة العثمانية^(٣).

أكثر رفيق العظم من نقد سياسة الدولة العثمانية، إما تصريحاً أو تلميحاً، ومثال ذلك، عند حديثه عن عدل عمر رضي الله عنه في تصريف أموال الدولة الإسلامية، وعن موقفه رضي الله عنه، عندما رفض الزيادة الفاحشة لمخصصات الخليفة خشية أن يكون فيها شيء من التبذير في الأموال.

(١) مجموعة آثار رفيق العظم - رشيد رضا - المقدمة.

(٢) مجلة الزهراء - المجلد الثاني - الجزء الأول - ص: ٢٣٤.

(٣) المعاصرون - محمد كرد علي - ٢٢٤ - ٢٢٥.

قال رفيق العظم: (وحبذا لو نظر الخلفاء بعدُ هذا النظر، وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة، فإن فيها كل الحكمة، ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الإسلام مبلغاً يدهش عقول الباحثين، وما نظن أن أكثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة إلا ناشئاً عن إسراف أمرائها وسلاطينها وتبديدهم للأموال في طريق الشهوات..).

وأشقى الأمم من هذا القبيل؛ الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يُعرف، ولا غاية لسلطانها تُوصف، وإنما هم أرباب اليد المطلقة في أموال الرعية، يأخذون ما شاءوا ويمنعون من شاءوا.. وليس عليهم من الأمة رقيب عتيد، ولا من الوجدان زاجر عنيد^(١).

وبعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان الدستور، قال رفيق العظم: كانت الأمة العثمانية قبل إعلان الدستور العثماني في مستوى واحد من حيث الظلم الذي كان ينالها من الحكومة المطلقة، لا فرق بين مسلميها ومسيحيها وتركبيها وعربيها. ومن شأن الحكومات المطلقة تساوي رعيته في الظلم والتظلم^(٢).

ويعتبر تأسيس الجمعيات القومية العربية هو التنظيم الآخر لرفيق العظم، وهذا العمل التنظيمي كان في مصر، وكانت تعتبر مهجر الأحرار آنذاك^(٣).

(١) أشهر مشاهير الإسلام-رفيق العظم-٢/٤٢٩-٤٣٠-دار الرائد العربي-بيروت-لبنان-الطبعة السادسة-١٤٠٣هـ.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-(الجامعة العثمانية)-١١٨.

(٣) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٢٢٨)

أول الجمعيات التي شارك في تأسيسها رفيق العظم (جمعية الشورى العثمانية) ومؤسسها رجال من سائر الشعوب العثمانية الكبرى، وكان رفيق العظم أمين صندوقها. وأصدرت جمعية الشورى جريدة باسمها (الشورى العثمانية) وتولى رفيق العظم تحرير القسم العربي فيها^(١).

يقول محب الدين الخطيب — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية —: (لما مررت بالقاهرة إلى اليمن سنة ١٣٢٥هـ — (١٩٠٧م) أطلعني رفيق العظم على نظام (جمعية الشورى العثمانية) التي كانت تأسست في القاهرة منذ عهد قريب، وأخبرني بما لها من الفروع في البلاد العثمانية وغيرها، واتفقت معه على إنشاء فرع لها في اليمن، وقد وفق الله لذلك بأقرب مدة، فتألف الفرع الرابع عشر للجمعية هناك)^(٢).

ومن أبرز الجمعيات التي أسسها رفيق العظم حزب اللا مركزية الإدارية العثماني^(٣)، وتولى رئاسة الجمعية، وقال في بيانه الذي وضعه عند التأسيس: (لما ثبت بالتجارب لهذا العهد أن أفضل أشكال الحكومات هو الدستوري، وأفضل أشكال الدستوري هو اللا مركزية، خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفرق والمذاهب واللغات)^(٤).

(١) مجموعة آثار رفيق العظم-رشيد رضا-المقدمة.(بتصرف يسير). وانظر عن جمعية الشورى العثمانية:

١- مجلة المنار-المجلد الثاني عشر-الجزء الحادي عشر-ص: ٨٢٤.

(٢) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-ص: ٢٣٠.

(٣) انظر: الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٧١)

(٤) مجلة الزهراء-المجلد الثاني-الجزء الأول-ص: ٢٣١.

ومما يلاحظ على الجمعيتين السابقتين أن رفيق العظم كان يسعى — كما يقول أعضاء الجمعيات القومية — إلى إبقاء الدولة العثمانية، إذ أن العرب يحتاجون إلى زمن طويل لترقية أنفسهم، وجمع كلمتهم، واستغنائهم عن الدولة إن زالت أو بقيت، وأن الخروج على الدولة ضار وخطره على العرب أشد من خطره على الترك^(١).

وهذا المبدأ الذي دعى إليه رفيق العظم، لم يكن مُجمَعاً عليه من قبل أعضاء الجمعيات القومية العربية^(٢). وسبق البيان إلى أن من أهداف الجمعيات القومية العربية: الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية^(٣).

كان لرفيق العظم بعض الأفكار والتوجيهات التي ساعدت على تأسيس الجمعيات القومية العربية، وتضمنتها مواقفه وآثاره العلمية، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: نقد سياسة السلطان عبد الحميد الثاني: يعتبر كتاب (أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة) من الكتب التي أثنى عليها أعضاء الجمعيات القومية العربية^(٤)، وحينما يذكر مواقف لبعض الخلفاء الراشدين مع الرعية،

(١) مجموعة آثار رفيق العظم - رشيد رضا - المقدمة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الرسالة. ص: (٢٣٩)

(٤) انظر: ١- مجلة المنار- المجلد ٧- الجزء ١٤ عشر- بتاريخ ١٦/٧/١٣٢٢هـ الموافق (١٩٠٤) ص: ٥٤٠.

٢- مجلة الهلال- المجلد ١٢- الجزء ١٥- بتاريخ ١٥/٢/١٣٢٢هـ الموافق (١٩٠٤) ص: ٤٧٧-٤٧٨.

٣- مجلة المقتطف- المجلد الثلاثون- الجزء التاسع- بتاريخ ٢/٧/١٣٢٣هـ الموافق (١٩٠٥) ص: ٧٣٤.

يقارن هذه المواقف مع الخلافة القائمة في عصره، فمثال ذلك: عند تعليقه على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه (قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني)^(١).

قال رفيق العظم في معرض التلميح ناقداً السلطان عبدالحميد: (.. أين هذا ممن اتخذوا بعد اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين، ويمزقون أحشاء الإسلام، ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتحجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء .. وحكموا الناس بالظلم والاستبداد، وساقوهم بعضا الاستعباد، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين.. فخدمت من جراء ذلك جذوة العقول، وفترت القوى، وانحطت الأخلاق وفقد العلم، وبارت الصنائع)^(٢).

ومما صرّح به رفيق العظم ناقداً السلطان عبدالحميد قوله: (إن السلطان عبدالحميد المخلوع كان دائم الوجل، محاطاً بالدسائس من قومه الأتراك الذين يعلم مقدار توجسهم الخيفة على سيادة تمتعوا بها نحو سبعة قرون، وكاد بسوء إدارته وحرصه على الحكم المطلق يمزقها تمزيقاً)^(٣).

ثانياً: رابطة اللغة ورابطة الدين: يقرر رفيق العظم ما قرره أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن رابطة اللغة أقوى تأثيراً في تكاتف المجتمع من

(١) انظر نص خطبة الصديق: مصنف عبدالرزاق- ٣٣٦/١١. والسيرة النبوية- ابن هشام- ٤/٣٤٠- ٣٤٢.

(٢) أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم- ٩١/١.

(٣) مجموعة آثار رفيق العظم- (الجامعة العثمانية)- ١٢٠.

رابطة الدين، فقد قال رفيق العظم: للاجتماع نظمات وروابط، وهي العصبية، وتكاد تكون طبيعية بين البشر، وأهمها الروابط العامة التي تجمع قوماً أو أقواماً كثيرين على كلمة واحدة، وهي رابطة العشيرة أو الجنس أو الوطن أو الدين.

ثم بين رفيق العظم أولوية هذه الروابط بقوله: إن رابطة الجنس والوطن فإنها طبيعية الوجود، لا سبيل إلى انحلالها إلا بانحلال القوم المنتسبين إليها، ويلي هاتين في المزية العصبية الدينية، ويقول: تليهما هذه العصبية لأنها نادرة الظهور بين الأمم، ولا يلجأ إليها إلا حين الضرورة القصوى، وقل ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل.. إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين^(١).

ثالثاً: الثناء على الثورة الفرنسية: من منطلق طلب الإصلاح والترقي في الدولة العثمانية، تحدث عن تاريخ الدول النصرانية من جانب السلطة السياسية، وقال: إن الأمم المسيحية لما كانت مسوقة في أوربا بيدي الكهنة والملوك مأخوذة الإرادة بقوة هاتين الفئتين لم يكن لها من الأمر إلا أن تُدعى إلى عمل فتجيب، وتساق إلى حرب فتسير. وبين رفيق العظم أن هذه الحال قد تغيرت حينما قيدت هذه الأمم قيود تلك السلطة وتمتعت بالحرية، وشاركت الحكام بالرأي أصبح الحكام بيد الشعب لا الشعب بيد الحكام، وصار الساسة وأرباب الحل والعقد محاسبين على كل عمل يأتونه^(٢).

(١) مجموعة آثار رفيق العظم - (رسالة الجامعة الإسلامية) - ٤٩.

(٢) المصدر السابق نفسه - ٥٧.

هذا التغيير الذي حدث في الدول النصرانية رافق ظهور النهضة الحديثة في أوروبا وعزاه رفيق العظم إلى من سماه بالمصلح الديني (لوثر)، وقال عنه: (لقد اشتهرت مقالته بعدم مشروعية الرهبنة والاعتراف (صك الغفران) وسيادة البابا الدينية، فكانت مقالته هذه أول خطوة خطاها الأوروبيون للتملص من أغلال السلطة الدينية.. وسرت مقالته في أوروبا سريان النار في الهشيم تلتقتها العقول بمزيد من القبول وأعقب هذا الإصلاح الديني الإصلاح السياسي والمدني^(١)).

ويؤكد العظم وهو من المؤسسين للجمعيات القومية العربية على أن الأسباب التي دعت الأمم الأوروبية إلى المطالبة بالحرية، وهدم أركان الحكومات المطلقة عقب الثورة الفرنسية، وسرت مبادئها يومئذ في نفوس الشعوب، تقليداً للفرنساويين وإقتداء بهم، هي الأسباب نفسها التي تدعو المسلمين الآن إلى طلب الحرية، سواء كانوا محكومين بحكومات مسلمة أو مسيحية^(٢).

ومن تأييد الثورة الفرنسية أن أصبحت شعارات الثورة المتضمنة للحرية والعدالة والإخاء دارجة في كلمات رفيق العظم^(٣)، وقد بين أن الشعار الماسوني قد أقام الرسول ﷺ دعوته، فقد قال رفيق العظم: محمد ﷺ أعظم البشر بلا مرأى ومؤسس الشريعة الإسلامية على دعائم الحرية والعدالة والإخاء^(٤).

وبعد إسقاط السلطان عبد الحميد وإعلان تطبيق الدستور ذكر رفيق العظم مدى سلطة الأمة، وبين أنها تربط أواصر الأخوة الوطنية، وتبث روح العزة في

(١) المصدر السابق نفسه - (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة) - ٥٩.

(٢) المصدر السابق - ٨٥.

(٣) انظر: أشهر مشاهير الإسلام - رفيق العظم - ٥٣/١.

(٤) المصدر السابق نفسه - ٢/١.

النفوس لتساق إلى مستوى التكافل العام القائم على أساس الحرية والإخاء والمساواة^(١).

رابعاً: الدعوة للحكم الديمقراطي: لقد كانت المبادئ الماسونية، والدعوات العلمانية، التي ظهرت في عصر تأسيس الجمعيات القومية من أقوى المؤثرات على المنهج الدعوي عند رفيق العظم.

ومن أدلة تأثره حديثه عن الديمقراطية ونظام الحكم، حيث رأى أحقية البلاد الإسلامية بالحكم الديمقراطي، وأن تقدم المسلمين منوط بتحقيق الحياة الديمقراطية وتأسيس المجالس النيابية، قال: إن نمضة المسلمين العلمية وحركتهم الفكرية، وتشربهم روح الديمقراطية، ما يقرب أوان التوفيق بين مصالح الشرق والغرب، ويدعو الدول إلى مضافة الأمم الإسلامية^(٢).

ومن المسوغات التي ذكرها رفيق العظم لتطبيق الحكم الديمقراطي في الدولة العثمانية، بأنه ما من أمة سارت فيها روح الديمقراطية الصحيحة إلا كانت أجزاءها أشد تماسكاً، وربطتها العامة أشد إحكاماً^(٣).

وحينما ذكر العظم خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند توليه للخلافة، قال: (عين أبو بكر رضي الله عنه حدَّ السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الأنيقة، حكومة ديمقراطية قلَّ أن يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الأمم

(١) مجموعة آثار رفيق العظم - (الجامعة العثمانية) - ١١٩.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم - (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة) - ٨١.

(٣) المصدر السابق نفسه - (الجامعة العثمانية) - ١١٩.

منها.. وفي الجانب الآخر وبعد أن تغيرت سياسة الخلفاء من الحكم الديمقراطي إلى الحكم المطلق، وأصبحت الخلافة ملكاً عضواً وسلطة جائرة.. تدنى نظام دولة الإسلام، ومن أبرز أسباب هذا التدني، انحلال عرى الحكومة الديمقراطية، فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقي الظالم والمظلوم^(١).

ولما كان مفهوم الديمقراطية تسليم سيادة الحكم للشعب وأنه يكون رقيباً على أعمال الحكام بواسطة المجالس النيابية^(٢)، قرر العظم أن الحياة السياسية لا تكون إلا بالحكومات النيابية، فهي التي ترفع شأن الأمم، وتحوط حياة الأقسام السياسية بسور من القوة^(٣).

عرف العظم الحكم الدستوري الذي يطالب به بأنه: عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها.

ومن هذا التصور للحكم أكد رفيق العظم على استبعاد الاعتقاد (الدين) من الحياة السياسية، فبعد أن استعرض أسباب ضعف الأمة ذكر منها: اصطباغ الدولة الإسلامية منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لأولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين للأخذ على أيدي الرعية وأفواهاها باسم الدين^(٤).

(١) أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم- ١/١٢٠-١٢٢. (بتصرف)

(٢) مذاهب فكرية معاصرة- محمد قطب- ١٧٨.

(٣) مجموعة آثار رفيق العظم- (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)- ٧٩-٨١.

(٤) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة- رفيق العظم- ٤/٦٧٦.

أثنى رفيق العظم على واقع تطبيق الحكم النصراني بقوله: إن الحياة السياسية في أوروبا قد صارت أو كادت تصير بمعزل عن الاعتقاد. فالغربي إذا حكم في الشرق مسيحياً مثلاً لا ينظر إلى ما بينهما من المشاركة في الاعتقاد، بل ينظر إلى المصلحة..

ولتعميم هذا المعتقد طالب العظمُ الدولَ الكافرةَ مساعدةَ البلاد الإسلامية لتطبيق هذا المعتقد، يقول: وليتكاتفوا مع المسلمين على المضي في سبيل العلم والترقي والديموقراطية الصحيحة التي يسير إليها الشرق كما سار إليها الغرب، وليحققوا — الدول الكافرة — بذلك آمال الشرق في بنيه^(١).

ويرى رفيق العظم — كما هو منهج الجمعيات القومية العربية —، بأنه إذا كانت الحياة السياسية للأمة حياةً دينية، كان لها آثار سلبية على الأمة منها:

١. أن لا سبيل معها — الحياة الدينية — لنوابع الأمة وعقلائها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي، الذي تقتضيه حالة كل عصر سواء كان في حياة الأمم السياسية أو حياتها الاجتماعية^(٢).

٢. ومنها: أنه يؤدي إلى جمود الأفكار على مبدأ الخضوع المطلق للأمير باعتبار أن الأمير رئيس ديني تحب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل^(٣).

(١) مجموعة آثار رفيق العظم - (رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة) - ٨٣.

(٢) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة - رفيق العظم - ٦٧٦/٤.

(٣) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة - رفيق العظم - ٦٧٨/٤.

٣. ومنها: تحول الأحزاب السياسية التي تقوم في الدول لخير الأمة ومصالحة الشعب إلى فرق دينية كانت في الإسلام آفة الدين، ومفرق شمل المسلمين^(١).

٤. ومنها: ظهور أثره على أعمال المسلمين وأخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم، بحيث صاروا لا يقبلون أي جديد باسم الدين، ويرفضون كل أمر نافع إذا لم يعرف عن أسلافهم الميتين^(٢).

وهذه المبررات التي ذكرها رفيق العظم ودعى إليها على أساس أنها الظلم في الأمة وسبباً في تشتيتها فالحكم لا يكون للأمة ولا للأفراد، إنما الحاكمة لله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ﴾^(٤) وسوف أتناول إن شاء الله المخالفات العقائدية عند الجمعيات في الباب الثاني.

خامساً: تعظيم العلم المادي: انطلاقاً من مبادئ الإصلاح والترقي التي دعا إليها أعضاء الجمعيات القومية العربية، والرغبة في تقدم العلوم والصناعات، ومسايرة الدول الأوربية، من هذه المنطلقات اهتم رفيق العظم بالعلم المادي

(١) المصدر السابق-٤/٦٧٦. في مجلة المنار المجلد السابع-الجزء الرابع عشر-سنة ١٦/٧/١٣٢٢هـ-رد على آراء رفيق العظم، في مسألة إقامة الخلافة على أساس الدين. وانظر: الحاكمة في تفسير أضواء البيان-جمع: عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس-دار طيبة-الطبعة الأولى-١٤١٢هـ).

(٢) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة-رفيق العظم-٤/٦٧٩.

(٣) سورة يوسف - آية (٤٠).

(٤) سورة الأنعام-آية (٥٧).

والرغبة في تحصيله، وهو بهذا المنهج يمثل مدرسة شيخه محمد عبده، تلك المدرسة التي حاولت التوفيق بين الدين والعلم وبينت للناس أن الدين الإسلامي الحق لا يحارب العلم ولا ينافي العقل وأنه دين العقل والحرية والفكر، وذهبت تبين للناس ذلك المنهج وتقييم الدين الإسلامي على العقل — الذي لا يقر أرباب الثقافة الغربية غيره حكماً — وبينت أن ليس في الإسلام ما لا يقره العقل^(١).

وقد وجه رفيق العظم نصيحته بلزوم تعلم الحياة الأدبية، والإقبال على طلب العلم وتأسيس المدارس، وخاطب أولياء أمور الطلبة بأن يعثوا أولادهم إلى دور العلم في أوروبا، ليستفيدوا خير ما في المدنية الغربية وهو العلم، وأن يهدموا كل حاجز يقوم في سبيل نشر العلم في بلادهم مهما كان^(٢).

ومن أجل نقل العلوم دعا رفيق إلى أن تقوم فئة — كما وصفهم — قد استنارت بنور العلم والمدنية، ببيان فوائد العلوم الحديثة للأقوام الآخرين الذين عزلتهم حكومات الاستبداد عن عالم الحركة والعلم.. فأصبحوا يستنكرون كل ما أتاهم عن طريق الغرب.

ولتحقيق تحصيل العلوم المادية بين العظم أن الأمة الإسلامية يجب أن تصافح الدول الأوروبية مصافحة الصديق للصديق، وقال: إننا محتاجون إليها في تلقي دروس المدنية عندها، وفي أخذ العلوم النافعة منها.. ومن العدل والإنصاف يجب الاعتراف بفضل المدنية الأوروبية التي نهضت بالإنسانية إلى مترلة سامية لم

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير-فهد الرومي-٧٠.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)-٧٩.

تبلغها من قبل، وأن الاحتكاك بالأوروبيين قد نفع الشرق نفعاً محسوساً.. فنحن مدينون لهم بالرقمي العقلي والصناعي.

ويؤكد رفيق العظم على أن العلم المادي هو رسول السلام في هذا العصر، والمشرق على القلوب، وأنه ما دامت السيادة مؤكدة في المستقبل للعلم فلتلتقها من الآن بصدر رحيب^(١).

سادساً: تأليف الكتب: صنف رفيق العظم في إطار تأسيس الجمعيات القومية العربية بعض الكتب، ومن أهمها:

١- كتاب أشهر مشاهير الإسلام: وهو كتاب يتضمن سيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، دون علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ترجم لبعض الرجال المعاصرين للخلفاء، وفي الكتاب يتعرض لمسائل كثيرة تعتبر تأصيلاً لبعض أفكار الجمعيات القومية. ووصفه أعضاؤها بأنه أعظم آثاره العلمية وطار به صيته في الأقطار^(٢).

٢- كتاب الدروس الحكيمة، للناشئة الإسلامية: وقد قرر محمد عبده تدريس هذا الكتاب في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، ويحتوي الكتاب على دروس للطلاب، مما قال فيه: مبدأ التآلف والاتحاد من أهم المبادئ التي تأسست على دعامتها سعادة البشر الدنيوية وحياتهم القومية^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه-٨١-٨٢. (بتصرف يسير)

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم-المقدمة.

(٣) الدروس الحكيمة للناشئة الإسلامية-رفيق العظم-١٥.

٣ — كتاب تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام: تناول رفيق العظم في هذا الكتاب واقع الأمة وما أصابها من ضعف بسبب ضعف العلم وتخاذل بعض العلماء في نشره^(١).

٥ — لرفيق العظم عدد من الخطب جمع بعضها في كتاب (مجموعة رفيق العظم)، ومن تلك الخطب: خطبة ألقاها على أعضاء نادي دار العلوم سنة ١٣٢٧هـ — بعنوان (أسباب سقوط الدولة الأموية) ومما جاء فيها:.. إن الخلافة صارت إلى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنه، ولم يبق بين العرب من أجلها أدنى نزاع باسم الدين بل كان العقل هو المحكم والمصلحة رائد جمهور العقلاء من الأمة، بقطع النظر عما إذا كان علي حقيقاً بالخلافة فإنه حقيق بها بلا شك، وإنما كانت هناك ظروف وأحوال إذا وصلنا خبر بعضها فإننا نجعل بعضها الآخر بتاتاً، وقد راعى جمهور الصحابة تلك الظروف والأحوال مما شاة لسنة الطبيعة والعقل فقدموا عليه الثلاثة الكرام، ولو كان للدين حكم في استخلاف علي رضي الله عنه لما عدلوا عنه إلى العقل..

وبعد أن قرر رفيق العظم هذا المبدأ تساءل: إذا فمن أين دخلت السياسة في الدين فجعلت الخلافة حقاً شرعياً من حقوق آل البيت؟ ومتى ظهر النزاع عليها باسم الدين؟ وظهرت مقالة الإمامية التي تلتها بدع كانت آفة المجتمع الإسلامي؟. الجواب على هذا يعرفه كل مطلع على التاريخ، دخلت السياسة في الدين، وظهرت مقالة الإمامية لما دخل الأعاجم في الإسلام^(٢).

(١) تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام-رفيق العظم-٦٧- مطبعة الموسوعات-مصر-١٣١٨هـ (١٩٠٠).

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم-(مجموعة خطب رفيق العظم)-١٥.

ثانياً: ساطع الحصري:

من خلال تتبع الكتب القومية، وتقديم الفكر القومي للأمة، يلاحظ أن ساطع الحصري قد شغل جانباً كبيراً في هذا الأمر وقد كتبت عن الحصري وفكره القومي، وفلسفته التربوية، وآرائه الاجتماعية، كتب كثيرة وأطروحات قدمت إلى الجامعات الأوربية والأمريكية^(١).

ويعود سبب ذلك إلى أن ساطع الحصري قد سلك في نشر فكره طريق التعليم والتربية، سواء التدريس أو التأليف وقد قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية: صنف أكثر من (٥٠) كتاباً، وقد عين معلماً أثناء حكم السلطان عبد الحميد، وعين وزيراً للمعارف في الحكومة العربية الأولى في دمشق^(٢).

واعتبر القوميون ساطع الحصري أول من أدرك — من المشتغلين بالقومية العربية — قيمة الثقافة في البناء القومي، وأنه يعتبرها المقوم الأول من مقومات القومية، والأساس الأول في تحقيق الوحدة العربية الكبرى^(٣).

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ-بجدة فتحي صفوة-١٧٠.

(٢) انظر: ١-الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسمية-٢٣٤.

٢-الإعلام-الزركلي-٧٠.

٣-مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-٧/٢.

(٣) مجلة الرسالة-العدد (١٠٣٧)-بتاريخ ١٢/٧/١٣٨٣هـ (١٩٦٣)-السنة الحادي والعشرون-

أ - تعريف موجز بالشخصية الذاتية :

يكنى بأبي خلدون: وهو ساطع بن محمد بن هلال بن السيد مصطفى الحصري^(١).

وعن أصله يذكر بعض الكتاب نقلاً عنه أنه من حلب، قال عن نفسه: ولدت في صنعاء من والدين عربيين حلييين في تاريخ يصادف ٥ من آب (أغسطس) عام ١٨٨٠ (١٢٩٧هـ)^(٢).

قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية: تترك ثم تعرّب، وقد أصبحت اللغة التركية هي لغته الدارجة، وأصدر مجلة التربية باللغة التركية، قيل عنها: أول ما صدر من نوعها بتلك اللغة. ووضع ١٢ كتاباً بالتركية^(٣).

وكان سبب ضعف ساطع الحصري باللغة العربية أن والده كان يكثر التنقل بين الولايات العثمانية لأنه كان يشغل منصب رئاسة محكمة الاستئناف. وكانت كثرة تنقلات والده وهو في المرحلة الأولى من حياته السبب في عدم التحاقه بمدرسة ابتدائية معينة. ولهذا تلقى تعليمه في البيت باللغة التركية المحكية.. كما أنه درس الفرنسية على أخويه الكبارين، وقد كان لهذا التعليم غير

(١) ساطع الحصري- مجموعة من الكتاب -١٢- (سلسلة نوايغ العرب)- دار العودة- بيروت- ١٩٨٥.

وانظر: الإعلام- الزركلي- ٧٠/٣.

(٢) ساطع الحصري- محمد عبدالرحمن برج- ٩- (سلسلة أعلام العرب)- الهيئة المصرية للكتاب- ١٩٨٨.

(٣) الإعلام- الزركلي- ٧٠.

التقليدي بالنسبة لذلك العصر أثر كبير في احتفاظ ساطع الحصري، طول عمره، بموقف مبني أساساً على العلمانية^(١).

وقال أحد معاصريه: بحكم نشأة الحصري — في عاصمة الدولة العثمانية، ودراسته باللغة التركية — لم يكن يعرف اللغة العربية أو يلم بها حتى مغادرته تركيا، وقد حدثني أنه كان في الأربعين من عمره حين بدأ بتعلمها^(٢).

وقد قال ساطع عن نفسه: قدر لي أن أتقل خلال السنوات الاثني عشرة الأولى من حياتي بين المدن التالية: من استنبول إلى أضنه، ومن أضنه إلى أنقرة، ومن أنقرة إلى استنبول، ثم من استنبول إلى طرابلس الغرب، ومن طرابلس الغرب إلى استنبول، ومن استنبول إلى صنعاء اليمن... ولقد تركت هذه الرحلات التي تمت خلال طفولتي في نفسي أثراً من الانطباعات العميقة، والذكريات المتنوعة^(٣).

ومع تلك الظروف التي مرّ بها الحصري في حياته الأولى، إلا أنه تلقى تعليمه في المدرسة الملكية باستنبول مدة سبع سنوات، أربع منها بالتعليم المتوسط والثلاث الأخيرة بالقسم العالي، وبقي طوال هذه المدة بالقسطنطينية لم يغادرها.

وجد ساطع في نفسه ميلاً إلى دراسة العلوم الطبيعية وأخذ يقرأ الكتب المؤلفة باللغة الفرنسية في هذه العلوم، ووضع لنفسه أمنية عاش على أمل أن

(١) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٧.

(٢) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٨.

(٣) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-١٤.

تتحقق وهي أن يصبح عالماً فيها، ومضى ساطع في دراسته بالقسم العالي من المدرسة الملكية الشاهانية يدرس العلوم الإدارية والسياسية^(١).

توضح التربية الأولى التي تلقاها ساطع الحصري في المدرسة الملكية، كثيراً من المؤثرات الفكرية التي سيطرت على فكره، فالمدرسة الملكية هي من الجانب الإداري كلية رفيعة المستوى تأسست عام ١٨٥٩م (١٢٧٥هـ)، ثم خضعت للتحديث عام ١٨٧٧م (١٢٩٣هـ)، يتخرج فيها الموظفون الإداريون^(٢).

وأما الجانب التعليمي والمنهجي للمدرسة فهو معهد علماني، وتدرس فيها مواد تجمع بين العلوم القانونية والسياسية والإدارية^(٣) وقد تحول هذا المعهد تحت حكم السلطان عبد الحميد الثاني إلى مركز اختبار ثقافي، حتى أن قادة تركيا الفتاة فتحوا أعينهم على تعاليم الحرية والوطنية، على يد أساتذة هذا المعهد^(٤).

مكث ساطع الحصري هذه المدة في القسطنطينية، وفي خلالها تربى وتلقى في حدائته وشبابه التربية المعهودة لدى جيل تركيا الفتاة، تلك التربية التي كانت تستند إلى الأفكار الوضعية الفرنسية والقومية الأوربية^(٥).

أمضى الحصري سني الدراسة وتخرج من المدرسة الملكية عام ١٩٠٠م (١٣١٧هـ)، وأختار وظيفة التدريس لأنها المدخل الأول لبث أفكاره ومبادئه.

(١) المصدر السابق-١٥.

(٢) خواطير وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٥٩-مطبعة اشيلية الحديثة-بغداد-الطبعة الأولى-١٩٨٣. وانظر: مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٨.

(٣) خواطير وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٥٩.

(٤) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٨.

(٥) نقد الفكر القومي-إلياس مرقص-١٢.

ويقول عنه أحد معاصريه: (ليس من الممكن نشر المعرفة بصورة نافعة ومؤثرة بدون معرفة جيدة لمبادئ التربية وعلم النفس، فاهتم بدراساتها حتى أصبح من خبرائها المعدودين في الدولة العثمانية)^(١).

وقد عين الحصري مدرساً للعلوم الطبيعية في المدارس الثانوية، وكان تعيينه في ولاية (بانيا) • وبقى ساطع مدرساً في ولاية بانيا لمدة خمس سنوات، ولسهولة اتصال هذه الولاية بالمدن الأوربية، فقد تمكن أن يحصل على كثير من الكتب الفرنسية التي نشرت في باريس، وأن يشترك في عدة مجلات علمية.. ونظراً لتخرجه من المدرسة الملكية عهد إليه المسؤولون عن التعليم في بانيا القيام بتدريس المعلومات القانونية التي كانت تدرس للتلاميذ، وعلم الاقتصاد والتاريخ.

انتقل ساطع الحصري من وظيفة التعليم إلى العمل الإداري، وذلك — كما يقول القوميون —: بسبب من تدخل السلطان عبد الحميد في سياسة التعليم، ورغب أن يعمل في مقدونيا أو كما كانت تسمى بالولايات الثلاث إشارة إلى (سالونيك Salonika، وموناستير Monastir، وكوسوفا Kosov) فصدر تعيينه من وزارة الداخلية، بمنصب (قائم مقام)^(٢).

وقد اختار ساطع الحصري، (مقدونيا) لأنها بعيدة عن سلطة السلطان عبد الحميد، وفيها حركات ثورية ضد السلطان عبد الحميد. وكان الجيش الذي

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦١.

• تقع في أقصى الغرب من البلاد العثمانية الأوربية.

(٢) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-١٦-١٨ (بتصرف).

تولى إرغام السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور عام ١٩٠٨، ثم إسقاطه عام ١٩٠٩ قد جاء من (مقدونيا)^(١).

بعد إعلان الدستور العثماني اعتزل الحصري الحياة السياسية، ورغب الاشتغال بالتأليف والتعليم، فقدم استقالته من وظيفته وعاد إلى عاصمة الدولة^(٢).

وخلال الحرب العالمية الأولى انتقل ساطع الحصري إلى البلاد العربية وأقام فيها، وبدأ فترة مهمة من حياته تناول ما يتعلق بتأسيس الجمعيات القومية العربية. فكان يقول عن نفسه: (أنا عربي، وعندما انفصل العرب عن الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أمامي خيار سوى الانضمام إليهم)^(٣).

وتوفي الحصري فجأة، ودفن في العراق^(٤) في ٢٤/من ديسمبر سنة ١٩٦٨ م الموافق (٤/١٠/١٣٨٨هـ)^(٥).

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس الجمعيات القومية العربية:

يمكن من خلال الإطلاع على الجهود العلمية القومية لساطع الحصري تقسيمها لمرحلتين:

(١) انظر: مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٣١.

(٢) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٢.

(٣) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص: ٨٠. نقلا من كتاب:

William L, Cleveland , The making of an Arab Nationalist-١٩٧١، ٤٥.

(٤) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٤.

(٥) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٩٢.

المرحلة الأولى: خلال الحكم العثماني، وما ظهر فيه من أحداث كإسقاط السلطان عبد الحميد، وتزعج جمعية تركية الفتاة للسلطة وانضمام بعض أعضاء الجمعيات القومية لها. ثم وقوع الخلاف بين العرب والترك.

المرحلة الثانية: خلال إقامة الحكومة العربية في بلاد الشام، وتفرد بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية بحكم بعض البلاد العربية. ثم تفرق أعضاء الجمعيات القومية العربية في البلاد العربية. تنتهي هذه المرحلة بوفاته.

وقد تكون المرحلة الأخيرة هي أكثر إيضاحاً للفكر القومي عند ساطع الحصري، إذ أن تأسيس الجمعيات القومية ينتهي بنهاية حكم الدولة العثمانية للبلاد العربية، إلا أن ما قدمه ساطع خلال تلك الفترة الأخيرة يعتبر منهجاً مؤصلاً لدى جمعيات القومية العربية.

ويمكن حصر جهوده وآثاره خلال المرحلتين جميعاً بما يلي:

أولاً: انتسابه إلى جمعية تركية الفتاة: كانت الفترة التي قضاها في مقدونيا هي العتبة التاريخية — حقاً — التي دخل منها ساطع الحصري ساحة المعترك السياسي الذي اشتد عوده مع تراكم تناقضات ومعارك اقتسام الدول الاستعمارية لبلدان العالم المتخلف والمستعمر^(١).

يقول الحصري في مذكراته عن أثر هذه الفترة في حياته: (أكسبني بعض الخبرة في كيفية تدبير الأمور دون إفساح المجال إلى اعتراض هيئة المراقبة

(١) مجلة قضايا عربية - العدد (٤/٣) - السنة الثانية - ١٩٧٥ - ص: ١٢٠.

وتدخلها مع التغلب على الدسائس والمناورات التي كان يقوم بها البعض من المراقبين ولذلك استعرضت في ذهني كل تلك الوقائع والتجارب وقررت لنفسي الخطة التي يجب اتباعها في هذا الشأن: بحث الأمور والمشاريع بحثاً دقيقاً وشاملاً قبل إيصالها إلى مكتب المستشار والتسلح بسلاح قوي من العلم والمنطق في مناقشتها معه، العمل على الدوام بهدوء تام دون إثارة وضجيج من إخفاء الغرض الأصلي من ذلك العمل في بعض الأحيان إن المرتبة العليا من السياسة، أي سياسة التربية الوطنية القومية تدخل ويجب أن تدخل في صميم أعمال المدارس وأغراضها^(١).

في أثناء قيام ساطع الحصري بوظيفة قائمقام في ولاية (مقدونيا) بدأت حركة الاتحاد والترقي في الاتصال بالعناصر المناوئة للسلطان عبدالحميد، وكان ممن اتصلت بهم ساطع الحصري، وبرغم أن مهمته كانت تقضي أن يبلغ المسؤولين عن هذه العناصر الوطنية بحكم عمله في الجهاز الإداري للدولة العثمانية، إلا أن ساطعاً أيد هذه الحركة الثورية وباركها وعمل بكل جهده لتأييدها^(٢)، وبخاصة أنه قد اعتنق مبادئها في الكلية الملكية.

لقد كان ولاء الحصري كما تقول المجلات القومية: (لم يكن متجهاً بحال نحو السلطان وشرطتها.. بل كانت حماسته كلها حتى ذلك الوقت قد تركزت في محاولة إصلاح المناهج التربوية والتعليمية المتخلفة والفاسدة... كانت عواطفه

(١) مذكراتي في العراق - ساطع الحصري - ١/٣٧-٣٨.

(٢) ساطع الحصري - محمد عبدالرحمن برج - ٢١.

كلها مع الحركات الثورية المطالبة باستقلال مقدونيا ضد السلطان عبد الحميد، ولقد تحول التعاطف إلى مشاركة إيجابية نشطة في حركة التنظيمات الثورية، وخاصة عندما نجح الضباط الثوريون الأتراك في حمل السلطان عبد الحميد إلى إعادة المشروطة أي الدستور^(١).

وحيثما تم إسقاط السلطان عبد الحميد وأعلن الدستور العثماني أخذ ساطع يلقي الخطب الحماسية الملتهبة، ونشرت كلماته في جريدة الثورة التي صارت باسم (نير حقيقت) أي (شمس الحقيقة)^(٢). ونشرت كلماته الملتهبة حول الإصلاح والديموقراطية في جريدة الثورة .. كانت تلك الفترة من حياة ساطع وبخاصة من ١٩٠٥-١٩٠٨ في ولايات مقدونيا العثمانية، منعطفاً عظيم الأثر في حياة الحصري الفكرية والاجتماعية^(٣).

ثانياً: نشاطه التعليمي والتربوي، خلال حكم جمعية الاتحاد والترقي:

إن من أبرز معالم وآثار الحصري على الجمعيات القومية العربية أن تولى مهمة التعليم، ووضع الأسس والمناهج المبنية على أسس قومية علمانية، وقد اعترف ساطع بعلمانيته؛ ففي أحد احتفالات تكريمه قُدِّمَ للتكريم فقيل عنه: [مرحباً بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والإسلام] فرد عليه بهذه العبارة، (عرب نعم.. إسلام لا.. أنا لا ليك.. أنا لا ليك) وكلمة (لا ليك) تعني أن صاحبها علماني أو لا ديني^(٤).

(١) مجلة قضايا عربية-العدد(٤/٣)-السنة الثانية-١٩٧٥-ص:١٢٠.

(٢) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٢.

(٣) مجلة قضايا عربية-العدد(٤/٣)-السنة الثانية-١٩٧٥-ص:١٢٠.

(٤) شخصيات اختلف فيها الرأي-أنور الجندي-٧٤-دار الأنصار-مصر.

وكانت بدايات نشر هذا الهدف منذ تخرجه من المدرسة الملكية، وتبنيه فكر جمعية الاتحاد والترقي، وأصبح من أكثر المرين والمثقفين نفوذاً في الإمبراطورية العثمانية، في الفترة التي تميزت بإعادة الحياة الدستورية، وقد قيل عنه: أحد الأعلام المعدودين في التربية، وقد كان عميد هذا الفن في تركيا قبل الثورة العربية^(١).

وقد عهد لساطع الحصري تولي إدارة مدرسة المعلمين في القسطنطينية، وأنشأ قسمًا فيها لتخريج المدرسين للمدرسة ذاتها^(٢).

لقد أعاد ساطع تأسيس هذه المدرسة على أسس جديدة تماماً كما يقول تلاميذه، دون أن يتقيد بمناهجها القديمة، أو بهيئتها التعليمية. وأدخل في مناهجها لأول مرة علم النفس، وفن التربية والتدريس.. وأنشأ مجلة سماها مجلة التدريسات الابتدائية التي كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية، وكانت تتألف من قسم نظري وآخر عملي، وكان ساطع يجمع فيها الكثير من نماذج الدروس^(٣).

كان ساطع من دعاة الاقتداء بالفكر الأوربي، والسير على النظم العلمانية، وقد قال عنه طلابه: ظل بعيداً كل البعد عن أن يتأثر في عمله بدين من الأديان، أو بمذهب من المذاهب، وإنما كان يصدر في عمله عن عقيدة قومية، وأسلوب علمي^(٤).

(١) مجلة الرسالة-العدد-١٢٣-بتاريخ ١٤/٨/١٣٥٤-١٩٣٥-السنة الثالثة-ص: ١٨٣٦.

(٢) مجلة قضايا عربية-العدد(٤/٣)-السنة الثانية-١٩٧٥-ص: ١٢١.

(٣) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٣.

(٤) المصدر السابق-٤٩.

ولتطبيع التعليم بهذه المعتقدات العلمانية، قام الحصري برحلات استطلاعية إلى بلاد أوروبا سنة ١٩١٠ (١٣٢٧هـ)، حيث زار عدداً من المدن الأوربية، وقام خلال زيارته بدراسة أحوال التعليم فيها، ولا سيما دور المعلمين، والدراسة في المراحل الابتدائية وما تطبقه هذه الدول من نظم تعليمية جديدة بأن تُحتذى.. وكان ساطع يتصل خلال رحلاته هذه بمشاهير رجال التربية والتعليم، وعندما تأسس معهد (جان جاك روسو) في جنيف تعرف ساطع إلى أهم مؤسسيه، وأخذ يحث وزارة المعارف العثمانية على أن تُوفد البعض من طلابها في بعثات تعليمية للدراسة في هذا المعهد، نظراً لما يطبقه هذا المعهد من نظم جديدة في التعليم، كما دعاه مؤسس المعهد أن يكون من أعضاء الهيئة الراعية له^(١).

وبعد النزاع بين العرب والأتراك، ورغبة الترك في تحقيق المطالب العربية بعد المؤتمر العربي الأول عُرض على ساطع الحصري أن يكون مستشاراً عربياً لوزارة المعارف^(٢). وألف الحصري كتاباً باللغة التركية في المجال التعليمي، منها: فن التربية بجزئين، وآخر في الإثنوغرافيا (علم الأقاليم أو الأجناس البشرية) وكتب في الكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات، ومبادئ العلوم الطبيعية^(٣).

ومما ينبغي ذكره عن نشاط ساطع الحصري خلال فترة حكم جمعية الاتحاد والترقي للدولة العثمانية، كانت تربط ساطع الحصري صداقة شخصية

(١) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٢٤.

(٢) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٩.

(٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-مجلة فتحي صفوة-١٦٧.

بعبدالكريم الخليل أمين المؤتمر العربي في باريس، وكان يقبل دعوة الخليل لالقاء خطاب في المنتدى الأدبي، وانضم إلى جمعية الفتاة^(١).

ثالثاً: آثار الحصري التعليمية في البلاد العربية: حينما أصبح للجمعيات القومية العربية كيان سياسي متمثل في الدولة العربية الأولى انتقل الحصري من القسطنطينية إلى سورية، وقد قال: (أنا عربي، وعندما انفصل العرب عن الإمبراطورية العثمانية، لم يكن أمامي خيار سوى الانضمام إليهم)^(٢). فذهب إلى سورية للمساهمة في بناء الدولة العربية الجديدة، التي قيل عنها: خضعت الحكومة لتوجيه الهيئات الوطنية السياسية^(٣) وكانت تربطه علاقة فكرية مع فيصل بن الحسين، ولهذا نراه في سوريا مسئولاً عن التعليم كما نراه في العراق.

لقد كان نصيب الحصري في التقسيم الوزاري أن أصبح وزيراً للمعارف في تلك الدولة الفتية^(٤) وقد تولى هذا المنصب الهام في توجيه الأمة مع وصف القوميين له بأنه أشد المفكرين العرب تعصباً لعلمانية القومية العربية^(٥).

(١) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٩. وانظر: حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١/٨٦.

(٢) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٨٠.

(٣) الحكومة العربية في دمشق-خيرية قاسمية-١٦٨.

(٤) خواطر وأحاديث في التاريخ-بجدة فتحي صفوة-١٦١.

(٥) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٦. المقال بعنوان: (ساطع الحصري، المفكر والداعية والنموذج) قالت المجلة عن هذا المقال: أهتم بشكل أساسي على دراسة صدرت عام ١٩٧١ عن جامعة برنستون الأمريكية بعنوان:

The making of an Arab Nationalist, Othomanism and Arabism in The Life and Thought of Sati` Al-Husri by William L, Cleveland - Princeton University press.

ويبدو أن هذا الكتاب هو اشمل وأدق دراسة صدرت حتى الآن، بأية لغة، عن حياة ساطع الحصري وفكره، فقد اعتمد مؤلفها على المؤلفات الأساسية للحصري، بالتركية والعربية، ثم على عشرات المراجع (أكثر من مائة وثلاثين) مؤلفاً بالعربية والتركية والإنجليزية والفرنسية، عن الحصري وعصره.

ويستمر ساطع الحصري في نشر مذهبه العلماني في التربية والتعليم، فيقول أعضاء الجمعيات القومية العربية عن دوره في تأسيس التعليم في المرحلة الجديدة من تاريخ البلاد السورية: لقد استدعته الحكومة السورية الحديثة الاستقلال عام ١٩٤٤ (١٣٦٣هـ) ليعمل كمستشار في الشؤون التربوية، وكانت تقاريره الستة عشر التي وضعها حول هذا الموضوع هي أساس تعريب التعليم في سورية.

ومع أن البرلمان السوري وصف قانون المعارف الجديد (المعتمد على تقارير الحصري واقتراحاته) بمثابة [إعلان الاستقلال الثقافي] فإن التزعة العلمانية التي تميزت بها اقتراحات الحصري؛ قد دفعت بعض العناصر الطلابية الملتزمة بدينها، والعالمية بمكر قانون الحصري؛ وإفساده لعقيدة المسلمين، فقاموا منكري له عن طريق مظاهرة تهتف في شوارع دمشق (لا إله إلا الله، الحصري عدو الله) .. إلا أن الحكومة السورية صمدت أمام الضغوط، واحتفظت بقوانين الإصلاح التعليمي - بحسب تعبيرهم - التي صممت بناء على اقتراحات الحصري^(١) العلمانية.

وكان مما جاء في المادة الأولى لقانون المعارف وما يتعلق بواجب الوزارة: مهمة وزارة المعارف تربية الجيل الجديد تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية، ليصبح كل فرد من أفراد قوي البدن حسن الخلق صحيح الفكر محباً لوطنه، معتزلاً بقوميته^(٢).

(١) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٨٢. وانظر عن هذه التقارير: تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها-الحصري-دمشق-دار الهلال-١٩٤٤.
(٢) تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها-الحصري. وانظر: ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن بروج-٧٣.

ويقول أحد طلاب الحصري والمتأثرين به خلال هذه الفترة: لقد تأثر الشباب بكتابات ساطع الحصري بالدرجة الأولى. تلك الكتابات التي ركزت الاهتمام على وجود العوامل والمقومات الكافية لوجود أمة عربية واحدة، وكان أولئك الشباب يحاورون ويردون على الأفكار التي أنكرت مثل تلك المقومات، وطرحت بدائل أخرى لعلاقات شعوب المنطقة العربية^(١).

وأما آثاره في الجانب التعليمي في العراق فقد قيل عنه: أنه ولا شك ركن أساسي قوي من أركان النهضة العلمية في العراق^(٢).

وبناء على اتفاق بين الحصري والملك فيصل ارتحل الحصري إلى مصر وبدأ يعد نفسه للأعمال التعليمية، فكتب إلى وزير المعارف المصري في ذلك الحين خطاباً يلتمس له التصريح بزيارة بعض المدارس المصرية، وجاءته الموافقة وقام بزيارات مختلفة، حتى جاءت الدعوة من فيصل بن الحسين للعمل في العراق ١٩٢١ (١٣٣٩هـ)^(٣).

لقد تولى الحصري إدارة المعارف هناك، فوضع أساس التعليم للحكومة الجديدة على أساس الوحدة القومية وأحدث الطرق الفنية والنظريات التربوية الحديثة، والاعتبارات القومية، ومتطلبات المرحلة الجديدة^(٤).

(١) سياسي يتذكر - جمال الشاعر - ٣٤.

(٢) مجلة الرسالة - العدد - ١٢٣ - بتاريخ ١٤/٨/١٣٥٤ - (١٩٣٥) - السنة الثالثة - ص: ١٨٣٦.

(٣) ساطع الحصري - محمد عبدالرحمن برج - ٤٤.

(٤) خواطر وأحاديث في التاريخ - نجدة فتحي صفوة - ١٦٢.

يقول عنه طلابه في العراق: (كان الحصري قد ألب من حوله كثيراً من العداوات لعدة أسباب أهمها تطرفه وتشدده في صيغ مناهج التعليم العراقية بصيغة القومية العربية والعصرية من منطلقات ثقافته العلمانية)^(١).

ولهذا التأثير في الأمة، وإقرار المبادئ العلمانية في تعليم وتربية الجيل على يد ساطع الحصري نجد أعضاء الجمعيات القومية العربية يقولون عنه: لقد مضى على ساطع بك في إدارة المعارف ست سنوات.. قام في خلالها بأجل الخدمات ولم يدخر جهداً في تنظيم المناهج وترقية المدارس وإيجاد روح علمية في البلاد هي أظهر أثر يذكر في نهضتها الحاضرة. وفي الحق إذا لم يكن لساطع غير مجلته التربية والتعليم هي الوحيدة من نوعها لكفاه فخراً في خدمة الناشئة الجديدة وهيئتها لمستقبل أحسن^(٢).

وقالوا: أهم ما يسجله التاريخ لساطع أنه وضع للقومية العربية أساساً علمية ووجه الأنظار وأشاع الروح فيها وقوى الإيمان بها.. حين يعمل في مجال التربية والتعليم يسعى لبعث العامل القومي وتقويته ويضع المناهج الدراسية التي يراها كفيلة بتحقيق ذلك، وحين يضع تقارير الإصلاح لخطط التعليم يضع نصب عينيه الخطط الكفيلة بتقوية الشعور القومي وتغذيته^(٣).

فقد كانت خدماته بناءً، متعددة الجوانب، بعيدة الآثار، .. ويكفيه أنه كان رائد الفكرة القومية العربية وفيلسوفها، الذي كان له أكبر الأثر في تكوين

(١) مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص:٧٦.

(٢) مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-١٩/٢-دار الطليعة-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٦٨.

(٣) ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-١٤٢.

وعى قومي في المشرق العربي، وقد كانت الدعوة للقومية العربية محور عمله وحياته مدة نصف قرن تقريباً^(١).

رابعاً: بعض أفكاره القومية: بعد إسقاط السلطان عبدالحميد ظهرت في الأمة ثلاث اتجاهات مختلفة، وهي:

١. الاتجاه الطوراني التركي، وبتزعمه جمعية الاتحاد والترقي.
٢. الاتجاه العثماني، ويقصد به العلماني التغريبي، وبتزعمه الجمعيات العربية.
٣. الاتجاه الإسلامي، والرابطة الإسلامية^(٢).

لقد كان ساطع الحصري ينهج النهج والاتجاه العثماني، ولهذا كانت أفكاره التي نشرها في كتبه وظهرت بعد تفرق أعضاء الجمعيات القومية العربية في البلاد العربية تلتقي مع الأهداف العامة للجمعيات القومية.

ولاتفاق مبادئ الحصري مع مبادئ الجمعيات فقد أثنى القوميون على أفكاره فقالوا: كانت آراؤه وأحاديثه في القومية والتربية والاجتماع قائمة على فهم عميق للتاريخ، وإيمان حقيقي بالمكان الذي يجب أن تحتله الأمة العربية تحت الشمس، إلى جانب ثقافته الغزيرة^(٣).

ويمكن إيجاز أفكار ساطع الحصري بالأمور التالية:

-
- (١) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٦.
 - (٢) انظر: مجلة المستقبل العربي-العدد الأول-السنة الخامسة-١٩٧٨-ص٧٨.
 - (٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-نجدة فتحي صفوة-١٦٧.

١ — الرابطة القومية والرابطة الإسلامية: ابتدع الحصري في الأمة الإسلامية ولاء جاهلياً وهو الولاء القومي، فعند حديثه عن العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، ذكر منها: الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ، والاشتراك في اللغة والتاريخ، والتشابه في العواطف والعوائد، والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل.. كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولّد التقارب والتعاطف وتكون الأمم والأوطان.

ويبين الحصري أقوى هذه النزعات، فقال: (إذا لا حظنا أنواع الروابط التي تكون الجماعات السياسية على وجه أخص نجد أن أولها وأفعالها هي نزعة القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ.. لأن الوحدة في هذين الميدانيين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة.. وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة متميزة عن الأمم الأخرى، ولكن لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية^(١)).

ويؤكد الحصري على أهمية اللغة بأن الأمة لا تقوم إلا بلغتها، فيقول: (إن حياة الأمة تقوم بلغتها، بوجه عام، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس — في حقيقة الأمر — إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها.. إن الأمة تبقى حية، ما بقيت محافظة على لغتها، إنما تبقى مستعدة للحرية والاستقلال، ما دامت

(١) أبحاث مختارة في القومية العربية-ساطع الحصري-٢٠٥.

تمسكة بلغتها. أما إذا فقدت هذه اللغة، فتكون قد فقدت الحياة.. إن اللغة تكون روح الأمة وحياتها وتمثل أهم عناصر القومية وأثن مقوماتها^(١).

ومن هذا المنطلق الجاهلي، ينتقد الحصري بعض أدباء ومفكري عصره بأنهم لم يصلوا إلى مرحلة (رابطة القومية) بعد أن انتقلوا من (الرابطة الإسلامية العامة)^(٢).

وبنفس المبدأ تناقل أعضاء الجمعيات القومية العربية فكرة ساطع الحصري، قالوا: (عوامل التجانس في الأمة هي أن يكون لها (بقعة أرضية مُتَّصَةً) و(وحدة في النسب والتقاليد العامة)، أما الوحدة الدينية فليس لها عنده أهمية في التجانس القومي^(٣) .

والولاء للغة: أوسع شمولاً وأرحب صدرأ من نظرية الدم والجنس والدين، لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها .. مهما اختلفت الأصول والأديان والمذاهب^(٤).

٢- الثورة الفرنسية وتصدير القومية العربية: اعتبر الحصري الثورة الفرنسية هي مبدأ تاريخ القوميات، فقال: (طراً على أوضاع أوروبا السياسية من التطورات والانقلابات ما لم يسجل التاريخ مثيلاً له، في أي عهد من العهود

(١) مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-٢/٤٨٠. مقطع من خطاب ألقاه على فريق الكشافة العربي ببغداد-سنة ١٩٣٧.

(٢) مذكراتي في العراق-ساطع الحصري-٢/٤٧٨.

(٣) الأستاذ(قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٦٩-الريس-لندن.

وانظر كتاب:(القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي)-الشهبندر- وهو عبارة عن مجموعة مقالات كان قد نشرها في الصحف المصرية.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٨-٣٩(بتصرف).

الغابرة.. والعامل الأساسي الذي أنتج هذه التحولات السياسية الخطيرة بهذه السرعة الخارقة كان نشوء الفكرة القومية وتغلغلها في نفوس الشعوب، تغلغلاً جعلها من القوى المؤثرة والمبادئ الفعالة في تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية^(١).

لقد أبعثت الثورة الفرنسية الدين عن واقع الحياة، وبالمنهج نفسه تعامل ساطع الحصري مع الدين الإسلامي، فهو يرى أن فكرة القومية العربية صادفت في طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة، وعقبات خطيرة قد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالي: فإنها احترقت أولاً السد المنيع الذي تكون من امتزاج فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة العثمانية الإسلامية. وهي — فكرة القومية العربية — على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التي تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية والرابطة الإسلامية من ناحية أخرى^(٢).

وكما اقتحمت الثورة الفرنسية الدين النصراني، فإن ساطع الحصري يقرر بأن روح القومية الحققة على وشك أن تقتحم كل العراقيل وستنتصر في آخر الأمر انتصاراً حاسماً، ولهذا فإن نظرية وحدة الدين مستبعدة في الفكر الأوربي ولم تلعب دوراً يذكر في نشوء النظريات القومية في أوروبا، وذلك لأن الأوربيين كانوا قد انتهوا من حل قضية (علاقة السياسة بالدين) .. ولكن الذي حدث في العالم الإسلامي، اختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً، فإن الخلط بين الدين وبين

(١) أبحاث مختارة في القومية العربية-ساطع الحصري-٥١.

(٢) اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية-ساطع الحصري-٢٢٩.

السياسة، قد استمر في البلاد الإسلامية بوجه عام، والبلاد العربية بوجه خاص^(١).

لقد كان أصل أهداف الثورة الفرنسية كما يقول الحصري، (الفكرة القومية وتغلغلها في نفوس الشعوب) فالولاء للرابطة القومية العربية، ولهذا اعتبر الحصري القومية ديناً وعقيدة، فقال: (إن الكفاح القومي والجهاد في سبيل النهضة القومية.. يحتاج إلى إيمان راسخ في النفوس... يتطلب بذل الجهود لبث الإيمان القومي في النفوس ولتقوية هذا الإيمان وتغذيته بكل الوسائل^(٢)).

وبعد إقرار العقيدة القومية التي من أجلها يوالي وعليها يعادي، يقرر الحصري: إن رابطة الدين في الأمة وبحسب وقائع التاريخ إنما كانت روابط عاطفية، ولهذا فإن الوحدة السياسية التي وجدت في صدر الإسلام لم تقو على تقلبات الأيام مدة طويلة، والخلافة العباسية نفسها لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايته السياسية^(٣).

وبهذا المبدأ يلتقي الحصري بالفكرة التي قالها رفيق العظم: (وقل ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل.. إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين)^(٤). فاعتبار رابطة الدين (رابطة عاطفيه) مبدأ يقرره ممن لهم تأثير في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

(١) أبحاث مختارة-ساطع الحصري-٢٠٤.

(٢) المصدر السابق-٨٨.

(٣) المصدر السابق-١١٢.

(٤) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية)-٤٩. وانظر ص () من الرسالة.

٣ - اعتبار الخلافة الإسلامية من عوائق نهضة القومية: ذكر الحصري بعض العوائق التي وقفت في طريق نهضة القومية العربية، ومن هذه العوائق السلطة المعنوية التي كانت تتمتع بها السلطنة العثمانية باعتبارها (دولة الخلافة الإسلامية).

ويبين الحصري الأثر المعنوي في الأمة كما -يعتقده- فيقول: (هذه السلطة المعنوية القوية كانت تخدر فينا روح القومية العربية وتجعلنا لا نشعر بأننا أمة مغلوبه على أمرها، مستسلمة لسلطان أجنبي عنها، نسينا أن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين).

إن مبدأ: (إن للعرب قومية تخصهم تختلف عن الآخرين) كان من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، فيقول الحصري: (بدأت جماعة مستنيرة من المناطق بالضاد تنتبه إلى ذلك - القومية الخاصة - وتطالب بحقوق العرب وتكلم عن حقوق اللغة العربية، وقامت جماعات كبيرة تعارضهم معارضة شديدة، زاعمة بأن هذه المطالبات تسيء إلى الرابطة (الإسلامية) العثمانية وتنافي الأخوة الإسلامية^(١))، وفي الباب الرابع - إن شاء الله - سأبين موقف العلماء المعاصرين من مبادئ الجمعيات القومية.

(١) أبحاث مختارة - ساطع الحصري - ١٧ - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٨٥.

لقد عرض الحصري أفكاره في أكثر من (٥٠) كتاباً، وكلها مطبوعة^(١).
وقدم من خلالها أبرز معالم مبادئ الجمعيات القومية العربية، من بداية تأسيسها
وحتى تفرق أعضائها.

ولما تحويه هذه الكتب من أفكار ومبادئ تعتبر امتداداً لأفكار الجمعيات
القومية العربية، قال الحصري: إن الأبحاث المذكورة سارت في الاتجاه الذي كان
اتجه إليه أعظم رجال الدين الإسلامي منذ قرن، فذكر منهم: عبدالرحمن
الكواكبي، عبدالحميد الزهراوي..^(٢).

ولهذا اعتبره القوميون قائداً من قادة الفكرة العربي^(٣) وأكثر الناس إخلاصاً
للقضية العربية وتفانياً في خدمتها، وأقوى الناس حجة في الدفاع عن القومية
العربية وجدلاً في سبيلها، يجادل في ذلك من تعرض لها بسوء ويحاجّ بذلك
السياسيين، والأدباء^(٤).

ويضيف القوميون إلى مآثر الحصري على الفكر القومي إنشاء معهد
للدراستات القومية، فقد قالوا عن دور الحصري: فحينما انتقل الحصري إلى

(١) الإعلام-الزركلي-٧٠/٣.

(٢) أبحاث مختارة-ساطع الحصري-٢٩٤. انظر: المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالحميد الزهراوي-
٢٠.

(٣) خواطر وأحاديث في التاريخ-بجدة فتحي صفوة-١٧٠.

(٤) مجلة الرسالة-العدد (١٠٣٧)-بتاريخ ١٢/٧/١٣٨٣هـ-(١٩٦٣)-السنة الحادي والعشرون-
ص:٧.

مصر مستشاراً للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية^(١) رأى ساطع أن الضرورة تقتضي إنشاء معهد للدراسات العربية يخدم هذا الغرض، ويحقق هذه الغاية، وخرجت فكرة ساطع إلى حيز الوجود، فتقرر إنشاء المعهد وافتتح للدراسة في العام (١٩٥٣-١٩٥٤م/١٣٧٢-١٣٧٣هـ) وعين ساطع مديراً له وأستاذاً للقومية العربية فيه.

وفي حفل الافتتاح ألقى الحصري كلمة قال فيها: (باسم الله وباسم العروبة أفتتح العام الدراسي الأول لهذا المعهد: معهد الدراسات العربية العالية، الذي أنشئ بناء على قرار مجلس جامعة الدول العربية). وحدد النظام الأساسي الذي أقره مجلس جامعة الدول العربية أغراض المعهد في مادته الأولى بالعبارات التالية:

١. إعداد شباب عربي مثقف ثقافة عربية عالية.
٢. نشر الثقافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة.
٣. إقامة فكرة القومية العربية على أسس علمية صحيحة.
٤. تكييف أسس الثقافة العربية بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة. وكان ساطع يقول لطلبته: إنه لا يكتفي من هذا المعهد بهذه الأغراض فحسب^(٢).

(١) خواطر وأحاديث في التاريخ-بجدة فتحي صفوة-١٦٣.

(٢) أبحاث مختارة-ساطع الحصري-٢١. وانظر: "ساطع الحصري-محمد عبدالرحمن برج-٨٦". و"خواطر وأحاديث في التاريخ-بجدة فتحي صفوة-١٦٣". و"ثقافتنا في جامعة الدول العربية - ساطع الحصري".

ثالثاً: ميشيل عفلق:

اختلفت الأحوال والظروف التي نشأ فيها ميشيل عفلق عن ظروف وأحوال الشخصيات الأخرى المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية العربية سابقة الذكر.

فقد نشأ عفلق بعد أن ظهرت مؤامرة الدول النصرانية على البلاد الإسلامية، وانهارت الدولة العثمانية والتي تعتبر حامية المسلمين، وتحولت إلى دولة علمانية^(١)، وانهار حلم زعماء الثورة العربية بإقامة دولة عربية^(٢)، وهو حلم مبني على وعود الدول الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٣).

وبالمقابل فقد ظهرت في المشرق العربي عدة دول خضعت لنظام الانتداب: دخل العراق وفلسطين وشرقي الأردن في منطقة نفوذ بريطانيا، ودخلت سوريا ولبنان في منقطة نفوذ فرنسا^(٤).

وظهرت في المجتمع العربي مقاومة المستعمر بمناهج مختلفة، فتعددت الحزبية، وظهر حب البروز والرئاسة عند بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية متمثلاً بالانقلابات والصراعات الدموية فيما بينهم^(٥).

(١) انظر: العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا-عبدالكريم مشهداني-٢٣٥-٣٠٥.
 (٢) انظر: ميسلون نهاية عهد-صحي العمري-١٦٥-دار الرئيس للكتب والنشر-لندن-قبرص-الطبعة الأولى-١٩٩١. وانظر: معركة ميسلون-إحسان الهندي-مطابع وزارة الثقافة والسياحة-١٩٦٧.
 (٣) سورة البقرة- رقم الآية (١٢٠).
 (٤) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١١.
 (٥) انظر: ١-مقدمة كتاب الأستاذ-زهير المارديني-٦٣-٧٨-الرئيس-لندن.
 ٢-عفلق والبعث-جوزيف الياس-١٠-دار النضال-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩١.

وسوف أترجم لمؤسس حزب البعث العربي، متناولاً جانباً معيناً من حياته، وهو أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية، مع تعريف موجز بالشخصية الذاتية. وعفلق هو مؤسس حزب البعث العربي، والذي يعد من أهم الأحزاب القومية المؤثرة في حياة المسلمين.

أولاً: تعريف موجز بالشخصية الذاتية:

من خلال تبني لكتب بعض أعضاء ومؤسسي حزب البعث - من أجل استخراج معلومات تناول شخصية ميشيل عفلق - لم أعتز على كتاب يتناول سيرته^(١) بالنقد والتحليل، وقد صرّح بندرة الكتب التي تناولت عفلق بالدراسة^(٢). ولهذا قال أحد تلاميذ عفلق بعد وفاته: إننا نعد العدة لدراسة منهجية شاملة تناول كل مناحي تفكيره^(٣).

نشأ ميشيل عفلق إبان مرحلة الصراع التي عاشتها البلاد العربية بينها وبين المستعمر، فهو ولد في زقاق الموصل في حي الميدان بدمشق عام ١٩٠٩م، أي بعد إعلان دستور السلطان عبد الحميد بستين^(٤)، وكان هذا التاريخ بداية تأسيس جمعيات القومية العربية والأحزاب ذات المقاصد المعينة.

(١) إن كتاب: الأستاذ-زهير مارديني. يعتبر قراءة في فكر ومنهج عفلق في تأسيس حزب البعث. وانظر: عفلق والبعث - جوزيف الياس.

(٢) انظر: عرب معاصرون - مجيد خلدوري - ٣٨٠. (حاشية رقم ٣).

(٣) عفلق والبعث - جوزيف الياس - ١٦ - دار النضال - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩١.

(٤) ميشيل عفلق الكتابات الأولى - ذوقان قرقروط - ٣٦ - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٣.

ساعدته مهنة والده (يوسف عفلق) على العيش في المعتكف الفكري، حيث تُعد مهنة والده في المهن الرفيعة، فقد كان تاجر حبوب يشتري محصول الفلاحين من الحبوب (القمح بصورة خاصة)^(١). فأسرة عفلق من الأسر الغنية في ذلك الوقت، ولهذا فقد انتسب عفلق إلى المدارس المنهجية الطائفية، حيث تلقى تعليمه في مدرسة (الأسية) الثانوية في القصاع للروم الأرثوذكس^(٢).

وينتمي ميشيل عفلق عقائدياً إلى المذهب الأرثوذكسي^(٣)، وهو بهذا يضاف إلى أعضاء الجمعيات القومية العربية، الذين كان لهم دور بارز في تأسيسها.

وقد سكنت هذه العائلة النصرانية في حي الميدان وهو حي للمسلمين. ويعتبر هذا الحي مركز الحركة الوطنية في دمشق^(٤).

وفي الجانب الأسري من حياة عفلق أظهر والده عفلق اهتماماً كبيراً بالشؤون السياسية، وأثر عن والده اشتراكه في نشاط وطني واعتقاله لمعارضته الانتداب الفرنسي على سوريا، وهكذا شب عفلق في عائلة كانت تُعنى بالقضايا الوطنية وتتداول بالشؤون السياسية^(٥). وأمه من فرع آل زيدان في

(١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٣٧.

(٢) المصدر نفسه-٣٧.

(٣) المصدر نفسه-٣٧.

(٤) عرب معاصرون-مجيد خلدوري-٣٧٤.

(٥) المصدر السابق-٣٧٤. وانظر: ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٣٩.

دمشق ومنهم جورجى زيدان^(١) الذي يعد من أبرز الشخصيات النصرانية التي خدمت الجمعيات.

تبدأ ترجمة عفلق الدراسية من المرحلة الثانوية حيث أنهى دراسته الثانوية وحصل وهو في سن التاسعة عشرة على منحة لنيل إجازة في التاريخ من السربون^(٢)، وقد قال عفلق عن نفسه: كنت تلميذاً في دمشق دون الثامنة عشرة، أهياً لفحص البكالوريا^(٣).

لقد سبق الحديث عن أثر البعثات العلمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، وبخاصة ابتعث الطلاب من سورية إلى فرنسا والتي كانت مُسْتَعْمَرَةً بلاد الشام، نجح عفلق في أول بعثة توفدها الحكومة إلى باريس للدراسة للحصول على إجازة لتدريس مادة التاريخ^(٤) وكان ذلك في عام (١٩٢٨م - ١٣٤٦هـ) وبعد دراسة الفترة اللازمة في السوربون بباريس عاد عفلق يحمل شهادة (الليسانس) في التاريخ^(٥).

ومكث عفلق قليلاً في بلاده عام (١٩٣٣م - ١٣٥١هـ)، ثم قفل راجعاً وفي نيته متابعة دراسة التاريخ للحصول على الدكتوراه وكان قد قطع شوطاً فيها بحصوله على دبلوم في تاريخ الفن اليوناني، الذي كان معجباً به وجعل

(١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى - ذوقان قرقروط - ٣٧.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي - مصطفى دندشلي - ٢٩.

(٣) ميشيل عفلق الكتابات الأولى - ذوقان قرقروط - ٦٩.

(٤) المصدر السابق - ٣٧.

(٥) المصدر السابق - ٣٩.

طريقه إلى فرنسا من اليونان للتعرف على آثارها، إلا أن وفاة والده أعادته نهائياً والتحق بوظيفة التدريس حيث انخرط في العمل الأدبي وفي الحياة السياسية معاً^(١).

كانت بعثة عفلق العلمية من المؤثرات الأساسية على تكوينه الفكري، وتنظيمه الحركي، كما سأبينه في الفقرة التالية، وبعد عودة عفلق من البعثة وحصوله على إجازة في التاريخ^(٢)، شغل منصب التعليم في تلك المادة، فعين سنة ١٩٣٢م في مدرسة (التجهيز) بدمشق (جودت الهاشمي الآن) وهي إحدى المدارس العليا في وطنه^(٣) وقد كانت الحكومة تختار من المحافظات عدداً من الطلاب الساهمين وتوفدهم إلى المدرسة، معفيين من أقساط التعليم الباهظة ليتعلموا، وتيهي لمعظمهم الأكل والنوم وتلزمهم بقيود المدارس الليلية الفرنسية.. لا يخرجون إلا أيام العطل^(٤).

وكان معظم الطلاب المعجبين بعفلق ينتسبون إلى القسم الداخلي في مدرسة التجهيز، وكان بعضهم من أبناء العائلات الكبيرة والأعيان ومن مختلف المناطق السورية.. وكان هؤلاء يفتدون إلى دمشق بقصد التحصيل الدراسي، وعند التخرج كان يدخل هؤلاء سلك التعليم كمدرسين، والمحظوظون منهم

(١) المصدر السابق-٤٠.

(٢) المصدر السابق-٤٠.

(٣) عرب معاصرون-محمد خندوري-٣٧٧. وقد قال المؤلف: لقد عرفت عفلق معرفة حميمة.
(٣٩٤).

(٤) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرروط-٣٩.

كانوا يتجهون إلى المهن الحرة. وهكذا كانوا يحملون راية البعث، وينشرون أفكاره في مناطقهم المختلفة^(١).

ومما لاحظته خلال البحث عن حياة أعضاء جمعيات القومية العربية، أن الكثير منهم، قد تولى منصب التعليم حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة وهم بهذا استغلوا هذا العمل من أجل غرس المبادئ القومية في نفوس الطلاب، قال عفلق: ولا يجهل أحد من تلاميذنا وأصدقائنا أننا كنا نسعى دائماً في تدريسنا وكتابتنا أن نلقح فكر النشئ العربي بأفكار الفيلسوف الألماني (نيتشه) عدو الاشتراكية^(٢).

ويقول أحد طلابه: (إن طلاب عفلق، بل مرديبه كانوا يرددون أفكار عفلق، وكان يتلوها بعضنا على بعض وتتغنى بها سكارى على اختلاف أدياننا وطوائفنا حيث لا فرق بيننا، ولا يضعفنا أننا قلة وأنا وحدنا .. لقد كان تفاؤل (أستاذنا) عفلق يغمرنا لقد أطلقنا عليه (محمد ميشيل)^(٣).

واستمر عفلق في منصب التدريس حتى كشفت بعض أفكاره ومبادئه^(٤) وفصل من الوظيفة سنة (١٣٦١هـ / ١٩٤٢م)، وكتب رسالة يبين فيها مآخذه على طريقة التعليم وسبب إقالته، فمما جاء فيها على لسانه ولسان رفيق

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٦.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٢٧.

(٣) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)-ذوقان قرقوط-٢٣٢ و٢٣٤.

(٤) انظر: دولة البعث وإسلام عفلق-مطبع النونو-٦٨-٧٠ عن الحادثة التي كان فيها كشف أفكار ومبادئ عفلق، مما جعل من مسؤول التعليم في سورية يقرر إقالته عن وظيفة التعليم.

دربه صلاح البيطار: (.. ننتظر تعليماً صحيحاً نزيهاً يحدث الانقلاب الفكري والأخلاقي العميق، وينشئ لنا الجيل العربي المنشود.. نعرف أستاذين أو ثلاثة استطاعوا أن يجعلوا من مدرستهم مركز إشعاع الفكرة العربية والبعث العربي، والعالم العربي يتطلع إلى كلماتهم، وشباب العرب يقدسونهم تقديساً. أما رئيس التعليم الثانوي فقد استطاع أن يجعل من أكبر مدرسة وطنية (تجهيز دمشق) عربية ملتقى الأشتات والأجناس من المعلمين، لا يخطر الواجب القومي للكثيرين على بال..^(١) .

واستمر عفلق وهو خارج ميدان التعليم يجمع الطلاب من حوله، حتى تألفت حكومة هاشم الأتاسي في شهر آب ١٩٤٩ بعد القضاء على حكومة حسني الزعيم.. وكان أن دخل ميشيل عفلق وزيراً للتربية. ويذكر القوميون عن هاشم الأتاسي بأنه كان عطوفاً على حزب البعث، وكانوا هم يبادلونه الود والاحترام. ومن البديهي أنه هو الذي أصر على إشراك البعث في وزارته رغم معارضة عناصر أخرى لهذا الاشتراك^(٢) .

وقد يكون هذا المنصب الوزاري من أوائل الأعمال السياسية التي قام بها عفلق، وقد رافقت بدايات إعلان تأسيس حزب البعث العربي.

ولما نشأ الخلاف بين مؤسسي أعضاء حزب البعث وفقد عفلق السيطرة عليها سافر إلى البرازيل عام (١٩٦٤م - ١٣٨٣هـ) ولم يرجع إلا بعد أن تولى

(١) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى) - ذوقان قرقوط - ١٨٢-١٨٥ (بتصرف).

(٢) حزب البعث العربي - جلال السيد - ٧٥.

حزب البعث مقاليد الحكم في العراق في سنة (١٩٦٨م/١٣٨٧هـ)^(١)، وذلك بناء على طلب من الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، وانهمك عفلق منذ عودته في النشاط السياسي وحاول اجتذاب تأييد القوى الشعبية لتأييد حكومة البعث في العراق^(٢).

في عام ١٩٨٩م صدر بيان رسمي عن قيادة الحكم في العراق يعلن وفاة ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث العربي.. ودفن في العراق^(٣).

يحدث رفقاء عفلق وطلابه، عن بعض صفاته الشخصية، مع اعتبار أن عفلق هو المؤسس والمنظر لحزب البعث، بل قد قيل عنه: (هل يمكن أن يكون هناك حزب بعث عربي بدون ميشيل عفلق؟ أنا لا أتصور أن ذلك ممكن. إذن فإن وجود ميشيل عفلق في الحزب هو أمر لا بد منه ولا يمكن الاستغناء عنه)^(٤).

والصفات التي ذكرت عنه، تعتبر صفات نقص في شخصية الرجل القيادي والذي لا يمكن الاستغناء عنه في الحزب، ومن هذه الصفات:

(١) انظر عن وصول حزب البعث إلى سلطة الحكم العراقي:

١. دولة البعث وإسلام عفلق- مطيع النونو- ٣٠٣-٣٠٦.

٢. حزب البعث تاريخه وعقائده- سعيد الغامدي- ٢٤.

٣. العراقي الاشتراكي- مجيد خلدوري- ٢٩٥-٣٢٤.

(٢) عرب معاصرون- مجيد خلدوري- ٣٨٨-٣٩١ (بتصرف).

(٣) ميشيل عفلق الكتابات الأولى- ذوقان قرقروط- ٢٢٩.

(٤) حزب البعث العربي- جلال السيد- ٦٦.

أ - الخوف من مخاطبة الجمهور: لم يكن عفلق الخطيب المفوه الذي يستطيع بفصاحته وتدفعه أن يؤثر في الجمهور ويلهب مشاعره.. كان عفلق بطبيعته إنساناً انعزالياً منطوياً على نفسه، إذا تحدث فإنما إلى فئات قليلة، وإذا مارس السلطة والنفوذ فمن وراء ستار^(١). وقد قال الشيخ علي الطنطاوي وهو أحد زملاء عفلق في الدراسة: لم يكن بارزاً فيه سمّة محددة، سوى الاعتداد بالعروبة والمفاخرة بخصال العرب، وسوى تلك السمّة فلم يكن متميزاً بين الطلاب لا بتفوق كتابي ولا بحضور خطابي ولا بعمق فكري^(٢).

ب - ضعف التفكير وتحديد الأولويات: لأول وهلة مما يلفت الانتباه عنده هو ذلك البطء المحير البطء في طريقته بالتفكير وبالحياء، وهو كمفكر ومنظر لحركة البعث، لم يظهر أبداً كرجل عمل وممارسة. لأن ما ينقصه بالتحديد هو تلك الدينامية النضالية اللازمة خصوصاً لقائد سياسي مثله^(٣).

ج - عدم القدرة على إدارة الاجتماعات والمناقشات العامة: نظراته يلقيها بئجل، وحساسيته تبلغ حد الإفراط. ويلاحظ أنه كان يتجنب قدر الإمكان الاجتماعات والمناقشات العامة، في داخل الحزب وضمن سلطاته العليا كاجتماعات القيادة القومية التي كان يتولى فيها دائماً منصب الأمين العام، كان يتضايق لأقل الأسباب، خصوصاً عندما يوضع خطه أو فكره السياسي موضع

(١) عرب معاصرون - مجيد خلدوري - ٣٨٥.

(٢) مجلة المعرفة - العدد العشرون - ذو القعدة لعام ١٤١٧هـ - ص: ١٦١.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي - مصطفى دندشلي - ٣٠.

التساؤل، وكان يقاطع اجتماعات الحزب، وفي بعض الأحيان كان يلوذ بالسفر إلى الخارج^(١).

د - ضعف القراءة والإطلاع: لم يعرف عن عفلق بأنه كان مواظباً أو مكثراً في قراءته . وقد قيل عنه: فكر عفلق السياسي لم يُعْنِ أبداً بالقراءات المتواصلة والمعمقة. كما أنه هو نفسه يصرح بأنه: (فقد الصلة مع تيارات الفكر الغربي مع مطلع الحرب العالمية الثانية)^(٢).

هـ - الكتمان والتردد في اتخاذ القرار: يلوذ بالكتمان إلى درجة يصعب فيها حتى على أقرب المقربين إليه أن يدركوا حقيقة نواياه. وفي الفترات الصعبة، والأزمات السياسية، نادراً ما يأخذ موقفاً للهم إلا إذا دفع إلى ذلك أو أجبر عليه. وكذلك فإنه - فيما خلا كلمة الافتتاح الترحيبية - نادراً ما يتحدث في المؤتمرات القومية للحزب. وأحب شيء إلى نفسه أن يقف موقفاً وسطاً وأن يُعدّ النقاط للمتخاصمين^(٣).

ز - الإهمال في العمل الإداري للحزب: لم تظهر على حزب البعث في شخص عفلق كفاءة الحكم وقابليات الإدارة... وعندما استلم حزب البعث الحكم بعد عام ١٩٦٣م كان على نمط ما كان عليه عفلق في وزارته، فقد كان عفلق متردداً سادراً وكان مهملاً لشؤون وزارته، لذلك كان (الديوان) هو

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي - مصطفى دندشلي - ٣٠.

(٢) المصدر السابق - ٣١.

(٣) المصدر السابق - ٣٠.

الذي يتصرف على هواه والتوقيع توقيع الوزير. وكم من مرة اكتشفنا مثل هذه الحوادث التي وقع عليها الوزير ولم يكن يدري عنها شيئاً^(١).

ويرى بعض أعضاء حزب البعث أن لاتصاف عفلق بالصفات سابقة الذكر، ولأسباب أخرى غيرها، حصل بروز قضيتين في حزب البعث العربي:

أولاً: أن غالبية معارضي عفلق وألد خصومه كانوا في فترة من الفترات من أنصاره وأتباعه المقربين إليه، وأن انتقاداتهم العنيفة ضده اليوم، هي على قدر (عباداتهم الشخصية له بالأمس)^(٢).

ثانياً: كما أبرزت صفاته السابقة أنه لم يخلق للمراكز التنفيذية.. وأن دوره في المجال السياسي لا يتعدى إعداد الأهداف وتزويد قادة الحزب بالنصح والتوجيه دون تحمل المسؤوليات المباشرة^(٣).

ب - أهدافه وآثاره العلمية والعملية في تأسيس جمعيات القومية العربية:

إن الهدف الرئيس في الحديث عن شخصية ميشيل عفلق، هو بيان أهدافه ومآثره في تأسيس جمعيات القومية العربية، ومن الناحية التاريخية فإن عفلق يعتبر من آخر مؤسسي جمعيات القومية العربية.

(١) حزب البعث العربي-جلال السيد-٧٧.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣١.

(٣) عرب معاصرون-مجيد خلدوري-٣٨٠.

وحزب البعث، يسير على المنهج الذي سلكته الجمعيات وفق متطلبات العصر الذي نشأ فيه. وعن هذا يقول أحد منظري حزب البعث العربي الاشتراكي^(١): إن حزب البعث ولد استجابة حية لضرورات سياق التاريخ العربي، ولحتميات عوامل التاريخ الفاعلة في المجتمع العربي.

وعن منهج مقاومة حزب البعث للمستعمر، ومدى اتفاقها أو اختلافها مع عقيدة المجتمعات الإسلامية، يقول: (لقد حاولت الأقطار العربية.. أن ترد على التحدي الاستعماري الطارئ — وهي محتفظة أول أمرها بمجتمعها التقليدي العتيق الراكد الذي استراحت إليه قروناً من الزمن — ولما فشلت في ذلك انتقلت إلى مرحلة جديدة تحاول أن تؤكد ذاتها فيها بالعكوف على تراث السلف وإحيائه وتطهيره، علها تجد في هذا العكوف طريق خلاصها، ولما تبينت أن الاستعمار الغربي ليس مجرد عدوان، وإنما هو هجمة حضارة جديدة، وقيم جديدة، وعلم جديد، لا قبل للتراث وحده بأن يقف أمامها، انطلقت برعاية بعض مثقفيها وزعمائها التقليديين ووجهائها تريد أن تأخذ من الغرب كل ما يعطيه لتحاربه به، فولدت بذلك الحركات الوطنية التي أطلقت شعار الاستقلال)^(٢). وأكد بأنه يجب على الأمة أن تنطلق وتبعث برسالة مستمدة من

(١) انظر: حزب البعث تاريخه وعقائده - سعيد بن ناصر الغامدي - دار الوطن - الطبعة الأولى - ١٤١١ هـ.

(٢) الأعمال الفكرية والسياسية - منيف الرزاز - ١٣/٢ و١٥ - مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية - الطبعة الأولى - ١٩٨٦.

حقيقة وجودها كأمة عربية، ومن تاريخها الذي جُبل مع طبيعتها، ومن موقعها الجغرافي كأمة وسط بين الشرق والغرب^(١).

إن حزب البعث سلك الأسس والمبادئ التي اتخذتها جمعيات القومية العربية أثناء انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، فعقيدة حزب البعث العربي: (أمة عربية واحدة، آمن بوحدة الأمة، ووحدة اللغة والتاريخ والأرض وكانت الأساس الذي بنيت عليه وحدة الأمة العربية)^(٢).

ولتأكيد اتفاق حزب البعث مع منهج جمعيات القومية العربية دافع الحزب عن تنظيم ومخطط ساطع الحصري العلماني الذي قدمه إلى التعليم السوري. ورفضه المجتمع، فقد قال أحد مؤسسي حزب البعث منتقداً جريدة الحزب، التي سايرت ثورة الطلاب ورجال التعليم في سورية^(٣)، وفي دمشق خاصة ضد الأستاذ ساطع الحصري: (كان المفروض أن الجريدة ستنبري للدفاع عنه وتتولى هي محاصمة التيار، لأن قيادة الحزب كانت متفقة مع آراء ساطع الحصري في القضايا القومية. والقيادة عممت على الحزبين في بلاغ لها خاص وجوب مطالعة كتب الأستاذ الحصري)^(٤).

(١) الأعمال الفكرية والسياسية- منيف الرزاز- ٣٥/١.

(٢) المصدر السابق نفسه- ١٥٩/٣.

(٣) انظر: مجلة المستقبل العربي- العدد الأول- السنة الخامسة- ١٩٧٨- ص: ٨٠.

(٤) حزب البعث العربي- جلال السيد- ٥٢.

أفاد أعضاء حزب البعث بأن ابتعثت عفلق — الأمين العام للحزب لربيع قرن — إلى فرنسا لفترة ما بين (١٩٢٩م-١٩٣٣) كان له الأثر البارز في فكره، مما طبع الحزب بطابعه وأثر فيه تأثيراً عميقاً، ليس على الصعيد الأيديولوجي فحسب — الأمر الذي لا يمكن نكرانه — بل أيضاً على صعيد التنظيم الحزبي والعمل السياسي واتخاذ المواقف^(١).

ويمكن حصر أبرز العوامل المؤثرة في التكوين الفكري لعفلق أثناء بعثته إلى فرنسا، وبيان دورها في تأسيس جمعيات القومية العربية. كالتالي:

١ — انضمامه للجمعيات والحركات القومية الطلابية: سبق الحديث عن دور الثورة الفرنسية خاصة، والبلاد النصرانية عامة، في تأسيس جمعيات القومية العربية، كما نشأت من قبل في فرنسا جمعيات قومية، وقد ذكر طلاب عفلق بأنه أثناء ابتعائه إلى باريس انضم إلى تلك الجمعيات، التي يقودها الطلاب في المهجر. قال أحد طلابه: (في باريس أثناء دراسته بالسوربون، لم يكن ميشيل منكباً على دراسته، منعزلاً كما قد يظن لخجله وانطوائيته، إذ لم يعتبر الدراسة أبداً منفصلة عن العمل، ولا الفكر منفصلاً عن قضية بلاده.. وبدافع انفعاله بأحداث بلاده حاول أن يقابل وهو في باريس، — ولكن على غير موعد — الملك فيصل، فلم تتسن له مقابلته.

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١٩.

لم يكن عفلق بعيداً عن الحركات الطلابية العربية وجمعياتهم، فقد شارك في نشاط الأحزاب القومية^(١)، واندمج فيها وعاش آمالها: لأنه يقرر أن النظريات العربية تكون لها فائدة عظيمة للقضية العربية، وقضية شعوبها، إذا تناولتها عقول مرتبطة بالقضية القومية، وتصبح خطراً كبيراً إذا تسلمها أشخاص فاقدوا الصلة الحية بالأرض والشعب..). ومن هنا كان ميله وتعاطفه للعمل في صفوف اليسار والأحزاب والحركات اليسارية في فرنسا وفي أوروبا،.. لذلك كان الحزب الشيوعي الفرنسي مناط رجائه واجتذبه للعمل في صفوفه، وتَسَقَّط ما يصدر عن كُتَّابه، منذ بداية، معاداته للاستعمار^(٢). ومن الجمعيات القومية في المهجر، التي انضم إليها عفلق: الجمعية العربية السورية، وجمعية الثقافة العربية^(٣)، وكتلتاهما تأسس في باريس.

٢ - تأثر عفلق بأفكار ومبادئ جمعيات الغرب. وفي هذا المنحى يقرر ابن خلدون في مقدمته: (أن المغلوب مولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده)^(٤).

كما أرجع ابن خلدون سبب الاقتداء إلى اعتقاد كمال الغالب في نظر المغلوب، وهذا السبب متحقق في أكثر أعضاء جمعيات القومية العربية، مثل: ميشيل عفلق الذي قال: (..إذا اشتقت أن أسمع صدى نفسي فالغريب أي لا

(١) عرب معاصرون-مجيد خلدوري-٣٧٨.

(٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقر وط-٣٩٠.

(٣) مقدمة كتاب في سبيل البعث-٧-عفلق.

(٤) المقدمة-ابن خلدون-١/١٩٥.

أنشده في قصة عربية، بل في قصة روسية أو فرنسية. هكذا تصور لي كتب (دوستوفسكي) و(جيد)^(١) نفسي بصدق وأمانة أكثر من الأدباء الذين أعيش وإياهم في بلد واحد وأشعر معهم بنفس الشعور^(٢).

ومن هذا المبدأ تأثر عفلق بطريقة وتنظير الغرب في تأسيس جمعيات ذات أهداف محددة، قال معيراً عن أهدافه: (إننا عدنا إلى الوطن نحمل فكرة الاشتراكية كتعبير عن الغايتين اللتين وقفنا أنفسنا على تحقيقهما: مكافحة الاستعمار الأجنبي، ومكافحة الرجعية الداخلية بكل أشكالها). وقد تأثر بالانضباط والتمسك الشيوعي اللذين علماه عن كتب الأساليب العملية التي يتبعها حزب سياسي رائع التنظيم) كما قيل عنه^(٣).

ولا يعني عفلق بعبارته (مكافحة الرجعية) إلا المعتقد الذي ينادي بالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وقال أيضاً: (وقد فهمنا عن طريق تلك الفكرة أن النضال ضد المستعمر لن يكون صادقاً، شاملاً، مجدداً إلا إذا كان نضالاً

(١) اندريه جيد: (١٨٦٩ - ١٩٥١): كاتب فرنسي. يعتبر من ألمع الوجوه في الأدب الأوروبي الحديث. وضع نحواً من ستين أثراً في الرواية، والمسرحية، والنقد، واليوميات، والسيرة الذاتية. منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٤٧. من آثاره: (الباب الضيق) étroite La Porte (عام ١٩٠٩)، و(السيمفونية الريفية) La Symphonie Pastorale (عام ١٩١٩). ومن كتبه المنقولة إلى اللغة العربية: كتاب أوديب ثيسوس - ترجمة طه حسين - دار العلم للملئين - الطبعة الخامسة - ١٩٨٥. وكتاب مدرسة الزوجات - تعريب صبري فهمي - دار الكتاب المصري - الطبعة الأولى - ١٩٤٧. ومزيفو السنقود - ترجمة بهيج شعبان - عويدات - بيروت - لبنان - ١٩٨٤. قوت الأرض والقوت الجديد - ترجمة شكيب الجابري - عويدات - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٩٦٥. انظر: (الموسوعة العربية - البعلبكي).

(٢) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق) - زهير المارديني - ٩٢ - الريس - لندن.

(٣) عرب معاصرون - مجيد خلدوري - ٣٧٦.

شعبياً... وفهمنا أيضاً أن هذا النضال مرتبط أوثق الارتباط بحالة الأمة الفكرية والأخلاقية وأنه لا بد لنجوع النضال ضد المستعمر من هئية انقلاب فكري يغير المفاهيم القديمة العقيمة ويهز النفوس إلى الأعماق.. ويخلق لها نظرة أخلاقية جديدة جدية^(١) وكل هذه التقارير هي محاربة لدين الله وعباده الصالحين.

تبنى عفلق المنهج الشيوعي في التنظيم الحركي، فقد أكد أحد رفقاء عفلق: (بأنه - وهو في باريس - قد تأثر بالموجة الشيوعية، وعمل مع الشيوعيين، ولكن هذا العمل كان نتيجة تصميم وتدبر، ولم يكن نتيجة عقيدة وإيمان، وقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي جذاباً)^(٢).

إن تاريخ عفلق الفكري يبدأ من تلقيه الأفكار الشيوعية في بلاد أوروبا، قال طلابه: (إن تاريخ عفلق الحقيقي، هو تاريخه الفكري، لقد التقى فيه على الانسجام والوفاق لأخصب تيارات الفكر الإنساني من (ماركس) إلى (نيتشه) ومن (جيد) إلى (دستوفسكي واهرنبورغ) مع أعمق الوعي للتراث العربي)^(٣).

واعتبر عفلق هذه الأفكار والمعتقدات ديناً لحياته، قال: (إذا سئلت عن تعريف الاشتراكية فلن أنشده في كتب (ماركس) و(لينين) وإنما أجب أنما دين الحياة، وظفر الحياة على الموت)^(٤).

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٢٧.

(٢) حزب البعث العربي-جلال السيد-٣٨.

(٣) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٨٨.

(٤) المصدر السابق-٨٩.

٣) نقل المبادئ والأفكار الملحدة إلى الأمة المسلمة: يمثل عفلق أحد عوامل الإفساد في المجتمع الإسلامي، والقضاء على عقيدة أهله، ولهذا يقول عفلق: (إنَّ القومية العربية هي الدين الجديد الذي أفرزته الأمة العربية في الوقت الحاضر.. وإذا كان الدين قديماً يقول كلمته في أوضاع الأمة جميعاً.. فإن القومية العربية اليوم هي: نظرية متكاملة لحياة ونظام للمجتمع، لها رأيها الصريح في الاقتصاد والنظام والأخلاق والإنسانية والدين)^(١).

وأثناء وصول قيادات حزب البعث للسلطة في العراق، قال أحد طلاب عفلق وأحد مؤسسي حزب البعث في العراق: (في طريقي إلى مرسلات الإذاعة كنت استمع إلى بيان الحزب الأول وهو يُتلى، ولفت انتباهي عبارات وأفكار تضمنها البيان غريبة عن لغة الحزب السياسية وجديدة علينا، كـ(عدو الله وعدوكم) و (الترفع عن الضغائن والأحقاد). وبرغم أن مسألة الإيمان بالله كانت محسومة في الحزب، ولم يطلها أي نقاش أو تساؤل، فإن خطاب الحزب السياسي كان ذا لثغة علمانية ورنين قومي)^(٢).

لقد تأثر عفلق بالمعتقدات الإلحادية ونقلها إلى المجتمع الإسلامي، ويمكن حصر دور عفلق في نقل الأفكار الإلحادية، بما يلي:

أ - نقل وترجمة الأفكار إلى المجتمعات الإسلامية: إنَّ عفلق بمعتقدده النصراني ألمح إلى تأثيره بمعتقدات كتاب ملاحدة أوربا، فمن ذلك تأثره بكتابات

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي - مصطفى دندشلي - ٨٤.

(٢) أوكار الهزيمة - هاي الفكيكي - ٢٦٧.

(جيد) ، يقول: (قدفتُ بي الصدفة إلى باريس، فاصطدم المستنقع الذي كنت أحمله معي — حياتي القديمة — بإقيانوس خضم الحياة، أسلمت نفسي لأمواجه، عندما ذقت حلاوة لَمْسِها وخفّة دعاها. هناك على الشاطئ وقدماي ما تزالان في تردد.. لمحت ساحراً جديداً قوياً الجسم طَلَقَ الحيا.. صوتٌ سحري جديد استهواني لأنه متصل بأعماق كياني وكيان كل شاب .. أو عَجَبٌ أن يلقي صوت (جيد) ذلك الصدى في قلوب الشباب وهو أول كاتب خاطبهم.. وأتاهم بدين جديد، دين الحماس، بعد أن انقضى كل القرن التاسع عشر بين نواح الروماتيزم وبرودة الكتابات العلمية والروايات الواقعية)^(١).

وَيَعْتَبِرُ طلابُ عفلق تأثراً (أستاذهم) بأصحاب تلك الأفكار من المناقب المحمودة له، قال أحدهم: (عندما كان يدرس في باريس كان (أندرية جيد) في أوج تألقه، وراح يزيد من إشعاعه مَيْلُهُ إلى كَفّة اليسار. ولكن (أدب أندرية جيد) نفسه يحمل نكهة جديدة ونفحة من التجديد والصدق لم يشهد الأدب الفرنسي مثيلاً لها.. فضلاً عن أن (جيد) نفسه كان محور استقطاب الجيل)^(٢) كما تأثر عفلق تأثراً عميقاً بالكتّاب الفرنسيين أثناء إقامته في باريس، .. لقد أمكننا أن نقرأ على غلاف أعداد كثيرة من (الطليعة) الأسبوعية مقاطع طويلة مأخوذة من مختلف أعمال (رولان) و(جيد) و(نيتشه) مترجمة إلى العربية بقلم عفلق على الأرجح^(٣).

(١) ميشيل عفلق الكتابات الأولى - ذوقان فرقروط - ٦٩.

(٢) المصدر السابق - ٤٣.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي - مصطفى دندشلي - ٢٠.

ب - الكتابات الأدبية: إن من منهج جمعيات القومية العربية - في إبراز مسمى ومقصد الجمعية - الاهتمام بالجوانب الأدبية^(١)، واتخذ عفلق ذلك المنهج، يقول طلابه: (بعد عودته من فرنسا وانخراطه في معمعان الكتابة كانت صحف دمشق تقدمه كـ (أديب وشاعر يقدم رسالةً إلى العربية لنتيشه وجيد)^(٢)).

كانت جريدة الأيام من المجلات القومية التي نشر فيها عفلق أفكاره والتي تعد من كبرى الصحف الدمشقية التي كانت تقود النضال، والتي كانت تصدرها (الكتلة الوطنية)، وكان يرأس تحريرها المناضل العربي^(٣).

تحدث عفلق عن أثر الآداب والقصص الفرنسية في نفسه، فيقول: (قلما أقرأ القصص العربية لأني لا أجد فيها ما يتجاوب مع نفسي ويروي ظمأ فكري.. فإذا ما قرأت قصة لتي مور مثلاً أجد فيها أشخاصاً ظرفاء نادرين، يضحكونني تارة ويستثيرون دهشتي تارة أخرى، ولكنهم لا يستفزون حماسي ولا يدخلون إلى قلبي لأني لا أجد فيها الإنسان، أما إذا اشتقت أن أسمع صدى نفسي فالغريب أني لا أنشده في قصة عربية، بل في قصة روسية أو فرنسية، هكذا تصور لي كتب (دوستوفسكي) و(جيد) نفسي بصدق وأمانة أكثر من الأدباء الذين أعيش وأياهم في بلد واحد وأشعر معهم بنفس الشعور)

(١) انظر: عيرة وذكرى (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) - سليمان البستاني - ٥٥.

(٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى - ذوقان قرقوط - ٤٣.

(٣) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق) - زهير المارديني - ١١٥.

ثم يطالب عفلق أدياء عصره باتخاذ منهج القصص الأوربية، فيقول: (ولا أعتقد أن القصة العربية تنجح إلا إذا بطلت تلك الفكرة السائدة بأنها نوع خاص من الأدب، وأصبحت شاملة لكل حياة الإنسان، تدخل في السياسة والاجتماع والفلسفة معاً فلا تعود تقرأ للذة والطرفة، بل لاستشفاف الحياة الإنسانية العميقة^(١)).

كان لترجمة عفلق لقصص وأديبات الغرب - وبخاصة في فرنسا- أثرٌ على تلاميذه، فقد تعرف في فرنسا، على كتابها وفلاسفتها، وكان هو وراء تأثر تلاميذه في سوريا وإقبالهم على ترجمة مؤلفاتهم حتى قبل أن يوفدوا في بعثات للدراسة في فرنسا^(٢).

ج - ترجمة حياة أدياء الغرب والثناء على سيرتهم: لقد وصفت المجالات القومية عفلق في بدايات كتاباته الأدبية بأنه: أديب وشاعر يقدم رسالةً إلى العربية لنيئته وجيد^(٣).

إن في نشر عفلق لتراجم وسير حياة أدياء فرنسا، - وسورية خاضعة للاحتلال الفرنسي - تبريراً للاحتلال واستمراريته، وهذا أمرٌ مناقض للشعارات التي تعلنها جمعيات القومية العربية، أليس من أهداف مناهجها وبرامجها مكافحة الاستعمار؟!.

(١) المصدر السابق نفسه-٩٢.

(٢) ميشيل عفلق الكتابات الأولى-ذوقان قرقوط-٤٤.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١٠١.

وعند استعراض عفلق لحياة الأديب الفرنسي (مارسل بروس) قال:
 (الأديب كالنبي، لا بد أن يضطهد من أجل رسالته، لولا فرقٌ بينهما يميزُ الأديبَ
 على النبي؛ وهو أن هذا يحمل في جديده بذور الموت، إذ أنه يجيء بجديد يفرضه
 على المستقبل، ويحرم عليه التجديد، في حين أن جوهر الأدب حرية لانهاية
 لها^(١)).

ومن أمثلة ثناء عفلق في إطار ونشر كتب مفكري فرنسا قوله عن مارسيل
 بروس وكتاباتهِ: (أول صلتِي وتعلقي به لأني قرأت فيها حقيقة نفسي المرّة،
 وحقيقة كل نفسٍ بين جوانحها وحشاً هداماً، يجمع بين رقة الشاعر وقسوة
 الجلاد)^(٢).

وقال أيضاً: (قد لقي بروس في فرنسا من المقاومة أشكالاً وألواناً، فلا
 أحسب حظه أن يكون أوفر في البلاد العربية، بل إني أتوقع له فيها مقاومة أشد.
 لأن الأصنام التي نصبت أمامه ومنعت عنه معبد الأدب حيناً، هي نفس الأصنام
 التي تقف في بلادنا حائلاً دون كل تجديد: عادات الفكر، وطرق الإنشاء)^(٣).

ومن إشادة عفلق ببعض أدباء روسيا، قوله: (منذ أشهر احتفلت بلاد
 السوفيات ومعها كل أوربا بذكرى مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة
 تولستوي. وإها لفرصة سانحة كيما نتوقف هنيهة عند هذا الفنان الكبير وحياته
 المفجعة)^(٤).

(١) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)-ذوقان قرقوط-٧٦.

(٢) المصدر السابق-٨٠.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٧٦.

(٤) المصدر السابق-٩٠.

٤ - طلاب المدارس نواة حزب البعث: بدأ عفلق في استغلال الطلاب لنشر الفكر السياسي وهو في باريس حيث شارك في نشاط الطلاب السياسي، و التقى طلاباً عربياً من بلدان أخرى شاركهم اتحاداً للطلاب العرب، ينادي باستقلال الوطن العربي ووحدة^(١).

ولما عاد عفلق إلى سورية وتم تعيينه في مجال التعليم استغل هذا الميدان الشريف في نشر أفكاره، حيث يقول: (ولا يجهد أحد من تلاميذنا وأصدقائنا أننا كنا نسعى دائماً في تدريسنا وكتاباتنا أن نلقح فكر النشئ العربي بأفكار الفيلسوف الألماني (نيتشه) عدو الاشتراكية)^(٢).

ويؤكد أحد أعضاء حزب البعث على أن الذي كان يعنى مؤسسي الحزب في الأصل أكثر من أي شيء آخر هو (الدعوة للفكرة العربية) لهذا السبب أخذوا على عاتقهم مهمة إيجاد حركة روحية قادرة على استقطاب النفوس الصافية والخيرة^(٣).

لذلك بدأ عفلق في تكوين نواة الحزب من الطلاب وأطلق عليه رئيس جمهورية الاستقلال (شكري القوتلي) لقب: (معلم الأولاد الصغار)^(٤) قال أحد المؤسسين: (أول نشأة الحزب كانوا من الطلاب. وكان وجود عفلق والبيطار

(١) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٧٥.

(٢) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٢٧.

(٣) المصدر السابق نفسه-٥٧. وانظر: في سبيل البعث-ميشيل عفلق-٨٨-٨٩.

(٤) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٨٥.

في التدريس هو السبب في ذلك. وقد استهويوا طلابهما وجذباهم إلى الحزب. كما أن الطلاب يعدو بعضهم بعضاً وتستجر فئة منهم الأخرى^(١).

ومما ساعد عفلق على نشر أفكاره ومعتقداته البعثية بين الطلاب؛ هو واقع الأمة في محاربة المستعمر بأي منهج، وقد كان النفوذ والسلطة في بلاد الشام للمعتقد القومي، ولهذا لم يستطع عفلق التأثير إلا في الشبان المسلمين الذين طغى ولاؤهم للوطن على ولائهم للدين، أما الكهول، الذين لا يزال المقام الأول عندهم للدين، فإن تأثيرهم بهذه الآراء لم يكن سهلاً^(٢).

وقد وجه عفلق نداءً إلى إخوانه النصاري داعياً إياهم إلى الانخراط في حركة القومية العربية، وإلى اعتبار الإسلام قافلة قومية مرتبطة ببيئتهم الطبيعية وتاريخهم^(٣).

وبما أن الطلبة جزءٌ من كان يهتمهم استقلال بلادهم، فانغمسوا في السياسة إلى حد بعيد، وبعد الحرب العالمية الثانية خاصة.. ووجد عفلق في رفقة الطلبة ما يوافق هواه، لما لمس فيهم من اندفاع لم يستنكفوا معه الجلوس عند قدميه والاستماع بشغف إلى شرح مفصل وواضح لأفكاره وآرائه الشخصية عن أوضاع بلادهم... لا يفتأ التلاميذ أن يحملوا كلمات معلمهم لينشروها بين عدد أكبر من السامعين، ثم أخيراً بين الجماهير.

(١) حزب البعث العربي-جلال السيد-٢٩.

(٢) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٥.

(٣) نضال البعث-ميشيل عفلق-٣٣/١-٣٥.

أدى الطلاب والشبان -الذين يشكلون نواة أنصاره- دورَ الطليعة في حركته السياسية، والواقع أن قوته السياسية اعتمدت على هؤلاء مُتَّخِذَةً منهم وسائل لنشر آرائه السياسية.. وغدا هؤلاء الطلاب المؤيدين المرتقبين لحزب البعث القادم^(١).

ولعظيم تأثير عفلق على الشباب، قال أحدُهم: (قرأنا له في سن مبكرة، فأعجبنا به أيّما إعجاب، وتأثرنا بأفكاره وآرائه.. ورأينا فيه قدوة الشباب القومي المتحرر وضمير الشعب العربي)^(٢).

لقد كان عفلقُ في نظر مرّديه يومئذ أستاذهم اليومي، بل كان أكثر من أستاذ، وكانوا له أكثر من تلاميذ، كانوا الظل الذي يتبع خطاه يتعلمون من أقواله ويرافقون حديثه القصير والمنقطع، وصمته الطويل، وكانوا يعتقدون أنه إن لم يكن في نفوسهم إلا بعض الخير فهو من صنعه^(٣).

وبعد أن بلغ تأثيره على الطلاب نحو ما ذكر أسس منهم نواة حزب البعث، وبدأ في الإعلان عن قيام الحزب قال أحد المؤسسين: (في خلال عام ١٩٤٢م - ١٣٦٠هـ) قال عفلق: ما دمنا متفقين إلى هذا الحد، وما دمنا قررنا أن الأحزاب السياسية في هذا البلاد لا تستطيع في تركيبها الراهن أن تقوم بالواجبات القومية والوطنية، وما دمنا مؤمنين بضرورة إيجاد تكتل من نوع

(١) عرب معاصرون-مجيد خدوري-٣٨٤-٣٨٥ و٣٧٧.

(٢) عفلق والبعث-نصف قرن من النضال-جوزيف الياس-٩.

(٣) الأستاذ (قصة حياة ميشيل عفلق)-زهير المارديني-٨٥.

جديد يحمل على عاتقه عبء القضية القومية على طراز أفضل مما نرى، فما قولك بتأسيس حزب جديد نكون نحن نواته والمشرفين على تنظيمه. فأجبتة بالإيجاب بلا تردد ولا إعمال نظر لأن الفكرة كانت محتمرة عندي من قبل وكنت أبحث عن العناصر الشريكة في هذا البناء الذي تصورته ضرورياً لهذا الوطن.. وبعد اجتماعات أخرى اتفقنا على أن يكون اسمُ الحزب (البعث العربي)^(١).

٥ — موقف عفلق من الإسلام ومن حياة الرسول ﷺ: إن عفلق لم يُعْغَلِ عند تأسيس حزب البعث بعضَ الأمور التي قد تكون مساعدة له في تقبل الناس لمبادئ الحزب، من أهمها:

أ — المجتمع الإسلامي الذي ما زال بسببه في الناس بقيةٌ خَيْرٍ، مع شدة الضغوط عليه بإبعاده عن الدين وإلزامه القومية العربية ديناً بديلاً.

ب — مآل الحركات والجمعيات سواء أكانت العربية منها أم الغربية التي صادمت الدين فألت إلى الخسران، كان عفلق على علم بتاريخها، قال: (الفهم السطحي هو أن نستنتج بسرعة بأنه ما دام مظهر الدين في هذا الوقت، وما دام ممثلوا الدين الرسميون هم في صف الواقع الفاسد، وليسوا في صف الثورة على الفساد، فإذا الدين من أساسه فاسد ولا وجوب له ولا خير فيه، ولذلك يجب التخلص من الدين لأنه سلاح بيد الظالمين والمفسدين. هذه هي النظرة السطحية والاستنتاج الخاطئ جداً وهذه هي النظرة التي توقفت عندها الشيوعية، ولذلك

(١) حزب البعث العربي-جلال السيد-١٧.

فالشيعوية ليست عميقة في كل نواحيها ولو أنها في كثير من نواحيها جد عميقة^(١).

من هذين الأمرين نقل عن مؤسس حزب البعث الحديث موقفه من الإسلام وسيرة الرسول ﷺ، ومن ضمن الأهداف التي حددها المؤسس اعتباره الحزب ثورياً على كل قدم، ويدعو إلى القضاء على الظلم والظالمين... فيأخذ من الدين الإسلامي ما يناسب دعوة حزبه ومبادئه.

كذلك: أكثر عفلق من البحث والحديث عن سيرة الرسول ﷺ، ليتخذ منها هدفاً لقبول المجتمع المسلم مبادئ الحزب.

أكد أحد مؤسسي الحزب على هذا الأمر، وأن الحزب عندما يستخدم بعض العبارات الدينية مثل لفظ (الروح، أو الإيمان، أو القدر، أو المصير).. فمن أجل أن يرفع من مستوى الحماس والاندفاع في سبيل الانبعاث المنشود للأمة العربية^(٢).

ومن أقوال عفلق بهذا الصدد: (كل عربي يستطيع أن يحيا حياة الرسول ولو بصورة جزئية على الأقل، طالما هو على علاقة وثيقة بالأمة التي أنجبت محمداً، من هنا كان الشعار البعثي الذي هز مشاعر جيل بأكمله خلال فترة طويلة من الزمن: (كان محمد كل العرب فليكن كل العرب اليوم محمداً)^(٣).

(١) في سبيل البعث- ميشيل عفلق- ١١٩.

(٢) رسالة الأمة العربية- شبلي العيسمي- ١٣- المؤسسة العربية للدراسات - بيروت- الطبعة الثانية- ١٩٨٠.

(٣) انظر: في سبيل البعث- ميشيل عفلق- ١٤٤. وانظر: حزب البعث العربي الاشتراكي- مصطفى دندشلي- ٦٦.

ويقرر أعضاء الحزب من طلاب عفلق هذا المبدأ الذي اتخذ عفلق في تأسيس الحزب بقولهم: (حتى تتجسد أفكار عفلق السياسية في الواقع العملي، كان لا بد لها من مثل أو نموذج تستلهمه، والحقيقة أن الإسلام وحياة النبي قد جذبا نفسه بقوة وعمق؛ ولكن ينبغي توضيح هذه الناحية، فالأمر بالنسبة له لا يعني إطلاقاً لا على صعيد الفكر ولا على صعيد الممارسة، أنه يتطلع إلى تأسيس دولة إسلامية أو رؤية العالم العربي من الزاوية الدينية، فالإسلام؛ خصوصاً خلال السنوات الأولى لظهوره، هو بالنسبة له، وبالنسبة للكثيرين غيره ممن تناولوا نظرية القومية العربية، ظاهرة ثقافية وروحية عربية صرفة، وحياة الرسول العربي هي تجربة أخلاقية وإنسانية، هذه الظاهرة العربية، ينبغي لها في عصرنا هذا أن تتحدد ثقافياً وروحياً، وتشع في حركة سياسية جديدة هي حركة البعث^(١).

ولجلاء عمق تأثير عفلق في استغلال مبادئ الدين الإسلامي للدعوة إلى حزب البعث، هذا أحد طلابه يقول: (عندما اقرأ كراسه (ذكرى الرسول العربي) أفف مأخوذاً بلغته، وعندما أصل إلى نهايته حيث يقول: (إذا كان محمد كل العرب فليكن كل العرب محمداً) تتابني قشعريرة وتسري في أوصالي برودة، وكأنني أسمع الوحي من جديد، وكأن ذلك الغار الصغير، غار حراء اتسع ليكون كل هذا الوطن العربي، من المحيط إلى الخليج، وتراءى في روعي صفات الكمال والعصمة والشموخ والنبوة في كل بعثي^(٢)).

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي - مصطفى دندشلي - ٣٢.

(٢) أوكار الهزيمة - هاني الفكيكي - ٧٩.

لقد اعتبر البعثيون الإسلام مفصلاً عن عبقرية الأمة العربية، وأن تعريب الإسلام على هذا النحو، وما أثاره من ردود فعل، يعتبر حدثاً مهماً في تاريخ الحركة العربية^(١).

ورغبة في احتواء مجموعة أكبر من أبناء المسلمين، فإن حزب البعث لا يفرض على أعضائه عقيدة دينية معينة، ويؤكد دستوره على (أن حرية الرأي والاعتقاد لا يمكن لأي سلطة أن تنتقصها، وأن الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة واحدة)^(٢).

وتحقيقاً لمبدأ التجميع الحزبي ألمح عفلق — عند حديثه عن الصراع بين الدين الإسلامي وأوروبا — إلى أن القومية العربية قد حلت محل الإسلام، قال عفلق: (إن أوروبا اليوم كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من الإسلام، ولكنها تعلم الآن قوة الإسلام — التي كانت في الماضي معيرة عن قوة العرب — قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية.. لذلك فهي توجه على هذه القوة الجديدة كل أسلحتها، بينما نراها تصادق الشكل العتيق للإسلام وتعاضده، الإسلام الأممي الذي يقتصر على العبادة السطحية والمعاني العامة الباهتة آخذ في التفرنج، وسوف يجيء يوم يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيديين عن الإسلام، ويضطرون لأن يبعثوا فيه معنى خاصاً إذا أرادوا أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء)^(٣).

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٣٩.

(٢) رسالة الأمة العربية-شبلبي العيسمي-٦٨.

(٣) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٦٤. وانظر: في سبيل البعث-عفلق-٢٦-٤٩.